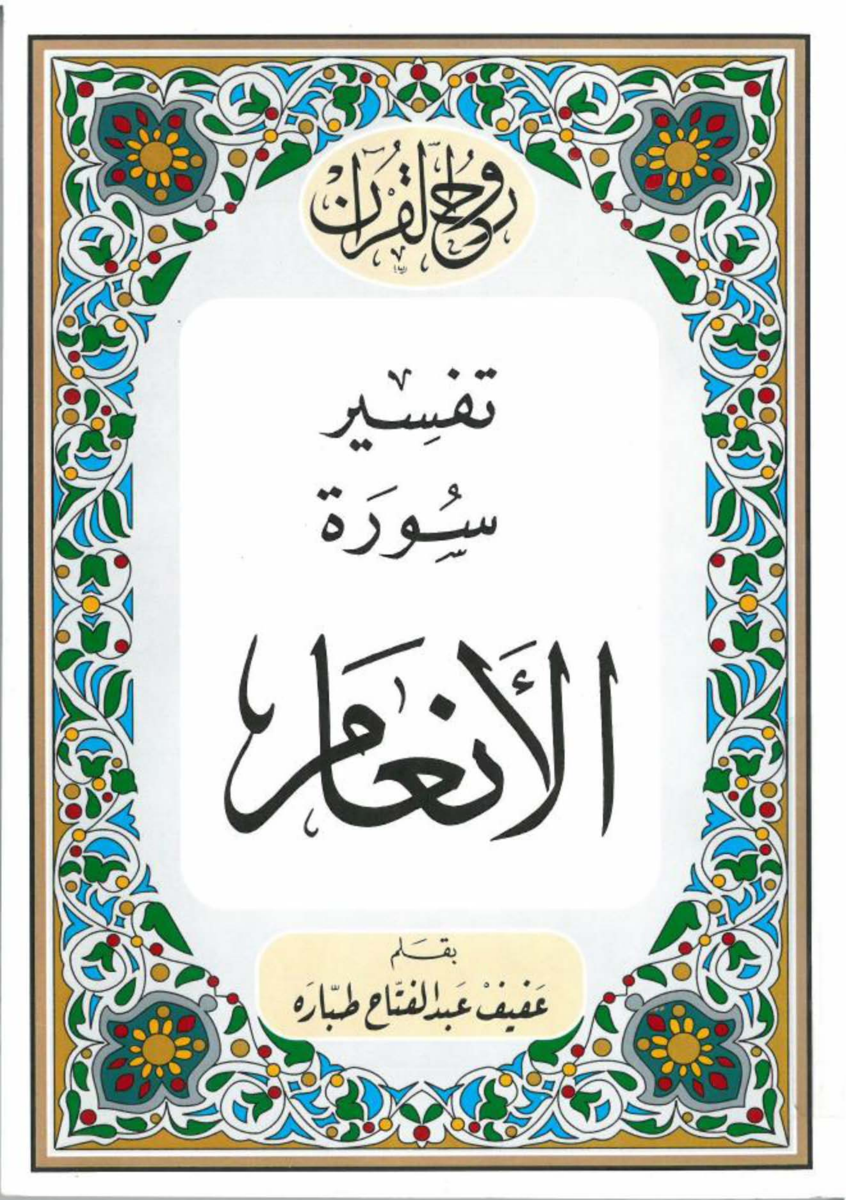

روح القرآن
تفسير
سورة
الأنعام
بقلم
عفيف عبد الفتاح طباره

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ ﷺ:

إنَّ أفضلكم مَن تعلَّم القرآن وَعلَّمَه



تفسير سورة



بقلم

عفيف عبد الفتاح طبارة

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

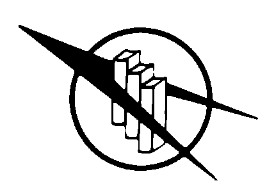
شارع مار الياس - بناية متكو - الطابق الثاني

هاتف: ٣٠٦٦٦٦ - ٧٠١٦٥٥ - ٧٠١٦٥٦ - ٠١/٧٠١٦٥٦

فاكس: ٠١/٧٠١٦٥٧

ص.ب ١٠٨٥ بيروت - لبنان

www.malayin.com



الطبعة الأولى

آب - اغسطس ٢٠٠٣

من سِيَرِح هذهِ السورة

بسم الله الرحمن الرحيم

لفضيلة القاضي المستشار الشيخ حسين غزال

هذه السورة العظيمة، وكل سور القرآن عظيمة، ولكن هذه السورة تمتاز بتنوّع موضوعاتها ودقة معالجتها لأمور شتى: سواء في الحوار العقلاني مع المشركين الذي يعتمد على الفكر وإعمال العقل والبصيرة، أو في دعوتها إلى النظر والتأمل في العالم العلوي وما فيه من نجوم وكواكب، أو في تلك الآيات التي تفتح العقول على أمور لم تُطرق من قبل كالتي في صفات الله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا في البرِّ والبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأَرْضِ ولا رَطْبٍ ولا يَابِسٍ إلاَّ في كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ الله أكبر على هذا الإعجاز، كل كلمة فيها تقول إن هذا ليس من كلام البشر.

أو في المعجزات العلمية وكشف أمور لم تدرَك إلا في عصرنا الحاضر كما في وصف الذي يضيق صدره إذا علا في السماء ﴿. . وَمَنْ يُرِدْ أنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماءِ. . ﴾.

أو في الإشارة إلى القذائف والألغام في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ القَادِرُ عَلَى أنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُم عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أوْ مِنْ تَحْتِ أرْجُلِكُمْ﴾ ﴿من فوقكم﴾ مثل القذائف، و﴿من تحت أرجلكم﴾ مثل الألغام.

أو في وصف قدرة الله ونفاذ أمره في الكائنات والخلائق في الدنيا والآخرة ﴿وَهُوَ الَّذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ المُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ. . ﴾.

أو ما هو وصف لوضع البشر يوم القيامة ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُم وَرَاءَ ظُهُورِكُم﴾.

أو في الوصف الرائع لحالة الذي يعود إلى الكفر بعد أن هداه الله ﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ الله مَا لاَ يَنفَعُنا ولا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أعقَابِنَا بَعْدَ إذْ هَدَانَا اللَّهُ كالَّذي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ في الأَرْضِ حَيْرَانَ. . ﴾.

أو ما يتعلق بالخلق ﴿إنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ الميِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ. . ﴾ ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً. . ﴾.

أو ما يتعلق بالنبات ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخرج مِنْهُ حبًّا مُتَراكِبا﴾.

أو في بسط الوصايا العشر التي أقرتها الشرائع السماوية من قبل. . أو. . أو. .

كل ما في السورة رائع رائع. . أتركك أخي القارىء مع الكاتب المبدع الأستاذ عفيف طبارة الذي أظهر روائع السورة وأخرجها على خير وجه: طباعة وصقلاً وإخراجاً وأسلوباً سهلاً يفهمه القارىء العادي ويقبل عليه بنهم وشوق، كما يجد فيه العالم المتخصص لقطات لا يعثر عليها في غيره من المراجع، لأن كل لقطة يكمن فيها جهد المؤلف وغربلته لعشرات المراجع، وإذا بالقارىء يصل إليه جهد المؤلف على طبق من ذهب شراباً سائغاً للشاربين.

جعل الله القرآن العظيم ربيع قلوبنا، وشفاء نفوسنا، وجلاء أحزاننا، وقائدنا إلى النصر المبين، والحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الأَنْعَامِ

تعريف بهذه السورة

«عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت سورة الأنعام بمكة ليلاً جملة واحدة حولها سبعون ألف ملك يجأرون بالتسبيح. وعن أسماء بنت يزيد قالت: نزلت سورة الأنعام على النبي ﷺ جملة وأنا آخذة بزمام ناقة النبي إن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة»[١].

وسميت هذه السورة بسورة الأنعام لما تكرّر فيها من ذكر لفظ الأنعام ست مرات.

وهذه السورة نزلت في تبيان أحكام تتعلق بالحلال والحرام وبيان وحدانية الله في ذاته وصفاته وفي التوجّه إليه وحده في العبادة، وفي رسالة الله إلى خلقه بواسطة رسله الذين جاءوا بالهدى من عند ربهم، كما أن فيها أصول البر والأخلاق الفاضلة والآداب الكاملة.

وسورة الأنعام من السور السبع الطوال[٢] التي تقيم قواعد الإيمان على أسس ثابتة وأسلوب يتسم بالحوار الحي مع المشركين فيما يعتقدون به من عقائد باطلة، لذا نراها قد تكررت فيها كلمة (قل) خطاباً للنبي أربعاً وأربعين مرة ثم يأتي بعدها التوجيه الإلهي الحق، وهذا الأسلوب من البراهين القوية على أن القرآن وحي إلهي وليس من تأليف محمد كما يدعي أعداء الإسلام فلو كان القرآن من تأليفه لما جاء على هذا النمط من الأسلوب الذي لم يعهد من قبل، والذي يُشعر أنه يتلقى الوحي من الله.

وهذه السورة تشتمل على جملة من المواضيع والتوجيهات الإلهية منها:

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) السور السبع الطوال هي: البقرة ـ آل عمران ـ النساء ـ المائدة ـ الأنعام ـ الأعراف ـ التوبة.

ـ دعوة الناس إلى النظر في معالم الكون وما فيه من دلالات على عظمة الخالق وجلاله ووحدانيته وانتفاء الشريك عنه.

ـ توجيه الأنظار إلى عجائب خلق الله في السماء والأرض، وإنبات النبات من الجامد اليابس من الأرض، وانفلاق الحب والنوى عن نبات وشجر.

ـ بيان الحلال الذي أحله الله من الأطعمة وبيان الحرام منها، وضلال المشركين فيما حرموه على أنفسهم من غير أن يعتمدوا على دليل وبرهان من الله فيما ذهبوا إليه.

ـ عناد المشركين وعدم استجابتهم إلى رسول الله ﷺ وأنهم وصلوا في الجحود إلى أنهم لو نزل عليهم كتاب من عند الله فلمسوه بأيديهم لرفضوه وقالوا إنه سحر مبين.

ـ مواساة رسول الله محمد ﷺ لما يلقاه من قومه من إعراض وأذى وسخرية بذكر ما لاقاه الرسل قبله من أذى من أقوامهم، وكيف حل بهم الهلاك جزاء ذلك.

ـ تسفيه المشركين بما كانوا يفعلون من قتل أولادهم بسبب الفقر وغير ذلك.

ـ النهي عن سباب معبودات المشركين لئلا يقابلوا ذلك بسبّ الله اعتداء بغير علم بما ينشأ عن ذلك من إثم.

بيان أن دين الله واحد لا يجوز التفرقة فيه وأن الذين يسعون فيه بالتفرقة وإنشاء المذاهب المختلفة هم بريئون من دين الله.

ـ كل إنسان يُجزى بأعماله فلا يحمل أحد خطيئة غيره ولا ينجو المسيء من العذاب بحسنات غيره.

ـ رسم معالم الدين الحق ومناهج السلوك الفاضل بإقامة الصلاة وتقوى الله وترك الإثم ظاهره وباطنه.

ـ سعادة الأمم بطاعة رسل الله واتباع هديهم وشقاوتها بانتشار الظلم والفساد فيها.

ـ ذكر الوصايا العشر التي أوصانا الله بها الجامعة لشتى الفضائل التي تسعد الإنسانية.

ـ كما أن هناك أموراً أخرى عالجتها هذه السورة لم نشر إليها خوفاً من التطويل.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾ .

شرح المفردات

يعدلون: يسوُّون به غيره في العبادة.

قضى أجلاً: حدّد للناس وقتاً يموتون فيه.

وأجل مُسمّى عنده: ووقت عيّنه الله للبعث يوم القيامة للحساب والجزاء.

تمترون: تشكّون في البعث أو تجحدونه.

هو الله الخالق للكون وللناس

تُستهل هذه السورة بالشكر والثناء على الله مبدع هذا الكون:

﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الذي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأرضَ﴾ فكلمة الحمد لله: هي الثناء

عليه والشكر على نعمه التي شملت جميع خلقه، والحمد أعم معنى من الشكر. فالله سبحانه أثنى على نفسه بما علّم به عباده الثناء عليه، فأثبت أن كل ثناء حسن ثابت له بالاستحقاق دون غيره، وهذا رد على المشركين الذين حمدوا الأصنام على ما تخيلوه من إسدائها إليهم النعم وتفريج الكربات عنهم.

فالله مستوجب للحمد لخلقه السماوات التي تشتمل على البلايين من النجوم والكواكب، وخلْقه الأرض وما تشتمل عليه من جماد ونبات وحيوان ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وأوجد الله الظلمات والنور، وقدّم الظلمات على النور لأن الكون في بدء الخلق كان ظلاماً دامساً ثم خلق الله النجوم المشتعلة، ومن هذه النجوم شمسنا التي تعكس نورها على القمر فيضيء وتلقي بنورها وحرارتها على كوكبنا الأرضي ولولاها لانعدمت الحياة على هذه الأرض وأصبحت جليداً دائماً.

وقد يراد بـ ﴿الظلمات﴾ الناحية المعنوية من الكفر والضلال، كما يراد بـ ﴿النور﴾ الهدى والحق، فالكفر يشبه الظلمة لأنه انغماس في الجهالة والحيرة، والإيمان يشبه النور لأنه انقياد إلى الهدى والحق. وجعلت الظلمات بصيغة الجمع والنور بصيغة المفرد لأن الهدى واحد والضلال متعدد والحق واحد والباطل متعدد.

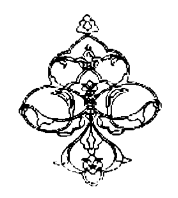
وقد جاء في الحديث الشريف: «إن الله خلق خلقه في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره فمن أصابه من ذلك النور يومئذ شيء فقد اهتدى ومن أخطأه ضل»[١]. ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾ العدل: هو التسوية يُقال: عدل الشيء بالشيء إذا سواه به، أي ثم الذين كفروا مع قيام هذه الدلائل الظاهرة على عظمة الله في خلقه يسوّون بربهم غيره في الألوهية ممن لا يقدر على خلق أي شيء ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً.

---

(١) رواه أحمد والحاكم في المستدرك.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِنْ طِينٍ﴾ إشارة إلى المادة التي خُلِقَ منها آدم أبو البشر، فكل البشر أصلهم من طين، والطين هو التراب الذي يخالطه الماء.

وعندما قام العلماء بتحليل جسم الإنسان وجدوه يحتوي على العناصر الموجودة في التراب مثل الكربون والحديد والصوديوم والبوتاسيوم والكلسيوم وغير ذلك من العناصر إضافة إلى الماء وهذه العناصر تنتقل إلى جسم الإنسان عن طريق التغذية فكل الأغذية النباتية والحيوانية التي تتغذى منها الكائنات الحيّة ومنها الإنسان أصلها من تراب ﴿ثُمَّ قَضَى أَجَلاً﴾ ثم قدّر الله حدًّا معيناً من الزمان لموت كل إنسان ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ﴾ وهو ما بين أن يموت الإنسان إلى يوم البعث سماه الله وعيّنه لديه لا يعلمه أحد سواه ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ ثم أنتم أيها المشركون تشكّون في أن الله إلّه واحد لا شريك له مع وضوح الأدلة على وحدانيته، وتستبعدون وقوع البعث، ولكن الله الذي خلق الإنسان ابتداء على هذه الأرض قادر على إعادته حياً يوم البعث للحساب والمجازاة على أعماله ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وفي الأَرضِ﴾ أي وهو الله المالك والمنفرد بالتدبير في السماوات والأرض والمعبود فيهما بحق ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ يعلم ما انطوت عليه قلوبكم وما تخفونه في السر من الأقوال والأفعال، كما يعلم ما تفعلونه علانية ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ ويعلم ما تعملون من الخير أو من الشر فيثيب على الخير ويعاقب على الشر.



﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

شرح المفردات

وما تـأتيـهم من آية: وما تأتيهم من معجزة أو آية من القرآن الكريم.

مُعرضين: منصـرفين.

بالحق: المراد به القرآن.

أنباء: جمع نبأ وهو الخبر الذي له أهمية (أي أخبار ما سينالهم من العقوبات).

قرن: الأمة من الناس وأهل كل زمان سـمُّوا بذلك لاقترانهم في الوجود في ذلك الزمان.

مكنّـاهم في الأرض: منحهم الله القوة والسلطان في الأرض وأثبتهم فيها.

وأرسلنا الســماء: أي المطر وعبّر عنه بالسماء مجازاً لأنه ينزل منها.

مدراراً: متابعاً غزيراً.

الذنوب سبب لهلاك الأمم

ويتابع القرآن فيحذر المشركين من إعراضهم عن الحق الذي جاءهم به رسول الله ﷺ من عند ربه مبيّناً لهم عاقبة أمرهم:

﴿وَمَا تَـأْتِيهِم مِنْ آيَـةٍ مِنْ آيَـاتِ رَبِّـهِم﴾ أي وما تأتي المشركين آية من آيات القرآن أو حجة ودلالة من عند خالقهم تدل على وحدانيته وصدق رسوله محمد ﷺ

﴿إلاّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ إلا قابلوا تلك الآيات بالإعراض عنها وعدم التدبر فيها، وأصل الإعراض صرف الوجه عن النظر في شيء ﴿فَقَدْ كَذَّبوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ فقد كذبوا بالقرآن الذي فيه الحق حين جاءهم على لسان محمد ﷺ ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهم أَنْبَاءُ مَا كَانوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أنباء: جمع نبأ وهو الخبر العظيم الذي له أهمية. والمراد بهذه الأنباء ما جاء في القرآن من الوعد بنصر المؤمنين والوعيد للكفار بخزيهم وإنزال العذاب بهم في الدنيا والآخرة، وسيظهر لهم عندها أن هذا الحق ليس موضع استهزاء.

ولقد بيّن الله أحوال الكافرين بصفات ثلاث:

الأولى: إعراضهم عن التأمل فيما جاءهم به رسول الله ﷺ من الهدى.

الثانية: تكذيبهم بالقرآن وهذه مرتبة أزيد مما قبلها لأن المُعرض عن الشيء قد لا يكون مكذباً به.

الثالثة: تجاوزهم التكذيب بالقرآن إلى الاستهزاء به، وهم بهذا بلغوا الغاية القصوى في العداء لدين الله.

ثم يبيّن الله مصير الذين كذّبوا بالحق من الأمم السابقة ليأخذ المشركون العبرة منهم:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِم مِنْ قَرْنٍ﴾ ألم: الهمزة للإنكار والتوبيخ، وكم: هي خبرية تفيد الكثرة. والقرن: يطلق على أهل كل عصر، واختلف في الزمن المحدد للقرن فقيل إنه سبعون سنة أو ثمانون أو مائة أو أكثر. والمعنى: ألم يعلم هؤلاء المكذبون لرسول الله كثرة الأمم التي أهلكها الله كديار عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم، وقد رأى الكثير من المشركين آثارهم في أسفارهم وسمعوا أخبارهم

﴿مَكَّنَّاهُمْ في الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ أي ملّكهم الله في الأرض وذلك كناية عن كثرة عمرانهم وثبات حكمهم ونفاذ أمرهم وكثرة ما أُعطوا من الخيرات، وأنتم يا معشر المشركين لم يكن لكم شيء من ذلك فأنتم دونهم قوة وأقل ثراء ﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِدْرَاراً﴾ والمراد من السماء المطر وعبّر عن المطر بالسماء لنزوله منها، أي وأرسل الله عليهم المطر غزيراً متتابعاً ﴿وَجَعَلْنَا الأَنْهَار تَجْري مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ أي من تحت أشجارهم ومنازلهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِم﴾ أي فكفروا نعمة ربهم وعصوا رسول خالقهم فأهلكهم الله بسبب ما اكتسبت أيديهمْ من آثام ﴿وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ وأوجد الله من بعد إهلاكهم قوماً آخرين عمروا بلادهم.

وفي هذا ما يوجب الاعتبار والعظة بحال من مضى من الأمم السابقة فإنهم. رغم ما كانوا عليه من القوة وسعة الرزق وكثرة الأتباع أهلكهم الله لمّا بغوا وظلموا وعاثوا في الأرض فساداً، فهنا تهديد ووعيد للمشركين ولكل أمة تشيع فيها المعاصي والذنوب فإن ذلك نذير بهلاكهم كما قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِم﴾.



﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

شرح المفردات

قِرطاس: ما يكتب فيه من صحيفة سواء أكانت من ورق أو غيره.

لولا أُنزل عليه ملك: هلاّ أُنزل عليه أحَدُ الملائكة لنصدّقه.

لقضي الأمر: لتمّ الأمر بإهلاكهم.

لا يُنظرون: لا يُمهلون.

وللبَسْنَا عليهم: أي التبس عليهم الأمر واشتبه.

فحاق: أحاط أو نزل بهم العذاب.

عاقبة: آخر الشيء ونتيجته.

كتب على نفسه الرحمة: أوجب على نفسه الرحمة تفضّلاً وإحساناً.

إنكار المشركين لنبوة محمد ﷺ

ثم يبين الله مبلغ إنكار المشركين للدعوة الإسلامية وإصرارهم على الكفر:

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ﴾ القرطاس: ما يكتب فيه سواء كان من جلد أو من ورق أو من غيرهما. فالله سبحانه يقول: لو نزّلنا عليك يا محمد الوحي مكتوباً في صحيفة ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ فعاينوه ومسوه بأيديهم فاجتمع لهم بذلك حاسة النظر وحاسة اللمس ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي لقال المشركون: ما هذا الذي جئتنا به يا محمد إلا سحر واضح سحرت به أعيننا، قالوا ذلك إمعاناً منهم في الجحود والعناد.

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ وهذا نوع آخر من جحودهم لنبوة محمد ﷺ حيث قالوا: هلاّ أُنزل على محمد ملك من الملائكة نشاهده معه ويخبرنا أنه رسول من عند الله حتى نؤمن به ونتبعه ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي لو أنزل الله ملكاً على الصفة التي اقترحوها بحيث يشاهدونه ويخاطبهم لأهلكهم الله إذا لم يؤمنوا ﴿ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ﴾ ثم لا يمهلون ولا يؤخر هلاكهم، لأن سُنّة الله جرت بأن من طلب معجزة واستجيب طلبه ولم يؤمن بعد مجيئها عذبه الله عذاب استئصال، والله لا يريد لأهل مكة العذاب لهم تكريماً لرسوله محمد ﷺ وتحقيقاً لوعده ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقد يكون المعنى: لو أنزلنا على رسولنا ملكاً من السماء في صورته الحقيقية وشاهدوه بأعينهم لزهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون، وذلك لأن البشر لا يستطيعون استقبال إشعاعات وإشراقات الملائكة لأن طبيعتهم غير مُعَدَّة لذلك، ولذلك كانت الملائكة تأتي إلى الأنبياء بصورة الإنس في غالب الأحيان ولمّا رأى النبي محمد ﷺ جبريل في صورته الحقيقية غشي عليه.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً﴾ أي لو أراد الله أن يبعث رسولاً من الملائكة إلى الناس لجعله على هيئة البشر لعدم استطاعتهم رؤية الملك على صورته الحقيقية ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَا يَلْبِسُونَ﴾ أي لاختلط عليهم الأمر واشتبه أهو رجل أو ملك من الملائكة، وإذا كان إرسال ملك سيؤدي إلى هذه النتيجة فليس من الحكمة أن يجعل الله رسوله ملكاً بل الصواب أن يكون بشراً منهم مؤيداً من الله بمعجزة تكون فوق قدرة البشر.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أخبر الله رسوله محمداً خبراً مؤكداً بأن الكفار قد سخروا من الرسل قبله، وهذه طبيعة الكفار كما جاء في القرآن في موضع آخر: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الحجر: ١١] وإذا كان الأمر كذلك فاصبر يا محمد على أذاهم وسخريتهم بك كما صبر الرسل قبلك ﴿فَحَاقَ بِالَّذِين سَخِرُوا مِنْهُم مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي أحاط بهؤلاء المستهزئين العذاب وحلّ بهم جزاء سخريتهم برسل الله، وفي هذا تثبيت لقلب محمد ﷺ ومواساة له على ما يلقاه من قومه من سخرية، كما أنه وعد له بالنصر على أعدائه.

﴿قُلْ سِيرُوا في الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا﴾ قل يا محمد للمكذبين برسالتك من عند الله: سافِروا في الأرض وانظروا بأعينكم نظرة تدبّر واعتبار في آثار من كان قبلكم من الأمم لتعرفوا ما حل بهم من دمار وعذاب ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكَذِّبِينَ﴾ والعاقبة آخر الشيء ومآله وما يعقبه من مسبباته فإذا كان عاقبة المكذبين للرسل الهلاك فأنتم أيها المشركون بعد هلاكهم لهالكون. والتعبير بالمكذبين دون التعبير بالمستهزئين للإشارة إلى أن مآل من كذّب الرسل الهلاك فكيف يكون مآل من جمع بين التكذيب والاستهزاء.

ثم يطلب الله من رسوله متابعة الحوار معهم:

﴿قُلْ لِمَن ما في السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ﴾ قل يا محمد لقومك المشركين بالله: من الذي له ملك السماوات والأرض ومن فيها من إنس وجن وملائكة وكائنات حية؟ هذا السؤال تمهيد لجواب يكون حجة عليهم ويلجئهم إلى الإقرار بما يفضي إلى إبطال ما يعتقدونه من الشرك بالله ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد إن كل ما في السماوات والأرض هو ملك لله، وهنا تقرير للجواب نيابة عنهم لأنهم يعترفون بذلك كما ذكر القرآن عنهم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥] فإذا تعين ذلك فَلِمَ يعبدون الأصنام من دون الله وهي لا تملك شيئاً ولا تنفع ولا تضر؟

لقد أمر الله تعالى رسوله محمداً أن يسألهم أولاً ثم يجيب عنهم ثانياً، وهذا إنما يحسن في الموضع الذي يكون الجواب قد بلغ غاية في الإقناع بحيث لا يقدر على إنكاره منكر.

فإذا ثبت أن لله ما في السماوات والأرض باعترافهم فالله قادر إذن على أن يعاجلهم بالعقوبة في الدنيا، وقادر على بعثهم أحياء بعد الموت لمجازاتهم على أعمالهم، ولكنه سبحانه أمام كل ذلك ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي قضاها وأوجبها على نفسه بطريق التفضل والإحسان، هذا الوصف للذات الإلهية ترغيب للمذنبين بالإقبال على الله وتسكين لخواطرهم بأنه رحيم بعباده لا يعاجلهم العقوبة وأنه يقبل منهم التوبة فلا ييأسوا من رحمته وقد جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ قوله: «لما قضى الله الخلق كتب كتاباً فوضعه عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»[1].

---

(١) أخرجه البخاري.

ومن مقتضى رحمة الله قوله سبحانه: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ[1] إلى يَوْمِ القِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ﴾ يؤكد الله أنه سيجمع الناس في يوم القيامة الذي لا ينبغي أن يرتاب فيه عاقل حيث سيحيي الناس بعد موتهم ويجازيهم على ما فعلوه في دنياهم إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ.

فالإنسان في عمره المحدود يرى الخير والشر يتصارعان وقد ينتصر الشر على الخير. ووجود إرادة إلهية تعاقب على الشر يوم القيامة هو مظهر من رحمة الله وعدله كما أن في جمع الناس يوم القيامة للحساب وعيداً للمجرمين ليكفوا عن إجرامهم وترغيباً للمؤمنين لزيادة طاعتهم لله والإكثار من العمل الصالح ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم فَهُم لا يُؤْمِنُونَ﴾ أصل الخسار: الغُبن، يقال خسر الرجل في البيع إذا غُبِنَ. فالكفر هو خسارة للأنفس فإنه لا يكفر بوجود الله إلا من ينسى أن كل أثر له مؤثّر وكل موجود له موجد، وخسروا عقولهم بسبب سيطرة الأوهام والخرافات فأشركوا مع الله في العبادة أصناماً من صنع أيديهم، فالإيمان يحتاج إلى عقل مدرك وإلى إذعان للحق بعد وضوح معالمه، إذ كل إنكار للحق هو خسران، فالكفار أهلكوا أنفسهم وغبنوها بعدم إيمانهم وبادعائهم بأن لله شريكاً، فترتب على ذلك أن سخط الله عليهم، وأعد الله لهم عذاباً أليماً في الآخرة.

---

(١) ليجمعنكم: أكد الله ذلك بتأكيدين بلام القسم وبنون التوكيد.

﴿ ۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٣ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٤ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ١٦ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٧ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١٨ ﴾.

شرح المفردات

وله ما سكن في الليل والنهار: وله سبحانه ما استقر في الليل والنهار.

وليًّا: ربًّا معبوداً وناصراً معيناً.

فاطر السماوات والأرض: مبدعهما وخالقهما على غير مثال سابق.

يُطْعِمُ ولا يُطعَمُ: يُطعم خلقه ولا يأكل هو.

من أسلم: خضع لله بالعبودية وانقاد له.

من يُصرف عنه يومئذ: من يُبعد عنه العذاب يوم القيامة.

يمسسك: يصيبك.

بضرّ: الضر: ضد النفع وهو الحال من فقر أو مرض أو شدة.

القاهر: القادر المستعلي.

الخبير: الذي يعلم ظواهر الخلق وبواطنهم.

شمول قدرة الله وعلمه للكون

ويتابع القرآن فيذكر شمول قدرة الله وعلمه للكائنات جميعاً:

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ سكن: استقر وثبت، أي لله سبحانه ما اشتمل عليه الليل والنهار من كائنات، فكل ما طلع عليه النهار وكل ما غشيه الظلام فهو ملك لله وتحت سلطانه وتدبيره وقيل: سكن بمعنى السكون الذي هو ضد الحركة، وإذا كان الله تعالى يعلم ما سكن في الليل والنهار من كائنات فهو يعلم ما تحرّك فيهما فاكتفى بذكر أحد الضدين عن الآخر ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ وهو سبحانه السميع لكل ما من شأنه أن يُسمع، العليم بكل ما من شأنه أن يُعلم. فالله يسمع دبيب النملة في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء.

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ الوليّ: هو النصير والمعبود، أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يعبدون الأوثان والأصنام قل لهم على سبيل الإنكار عليهم: أغير الله أتّخذ معبوداً أطلب منه النصرة والإعانة على النوائب والمصائب ﴿فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ﴾ أي هو مبدعهما ومنشئهما على غير مثال سابق ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ﴾ فهو الله سبحانه يرزق ويُطعِم كل من في هذا الوجود من أحياء ويمدهم بأسباب الحياة والنماء، والله لا يُطعمه أحد، وهنا إنكار على من يعبدون الأصنام ويقدمون القرابين والأطعمة لها ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ قل يا محمد لقومك إني أُمرت من ربي أن أكون أول من خضع له وانقاد إلى دينه وأخلص له في العبادة ﴿ولا تَكُونَنَّ مِنَ المُشْرِكِينَ﴾ كما أُمرت أن لا أكون من جملة المشركين الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى يتوجهون إليها بالعبادة.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يأمر الله رسوله محمداً بأن يبين لقومه حالاً من أحواله وهو خوفه من عذاب الله إذا عصاه، فيكون ذلك

تنبيهاً للمشركين وإنذاراً لهم بالعذاب إذا بقوا على الشرك بالله والعصيان لأمره المستوجب للعذاب العظيم يوم القيامة. وإضافة العذاب إلى اليوم العظيم ﴿عَذابَ يَوْمٍ عَظيمٍ﴾ كناية عن عِظَمِ ذلك العذاب وشدة أهواله.

﴿مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ﴾ أي من يُدفع عنه هذا العذاب ويسلم منه فقد رحمه الله بفضله ﴿وَذَلِكَ الفَوْزُ المبينُ﴾ وهذا الفوز الظاهر الواضح هو النجاة من عذاب الله يوم القيامة والظفر بنعيم الجنة التي وعد الله بها عباده الصالحين.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فلا كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُوَ﴾ والخطاب هنا للنبي ﷺ ولكل مؤمن ولكل من هو أهل للخطاب، والمعنى: وإن يصبك الله بضرّ كمرض وفقر وحزن وغير ذلك من البلايا فلا يكشفها عنك إلا الله ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيء قَدِيرٌ﴾ وإن يصبك الله بخير أي برخاء في العيش وسعة في الرزق وصحة في البدن فهو سبحانه على كل شيء قدير. فالله وحده هو القادر على نفعك وإزالة الضر عنك فكيف تتوجه أيها الإنسان بالدعاء والعبادة إلى غير الله الذي لا يملك نفعاً ولا ضراً.

﴿وَهُوَ القَاهِر فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ أي الغالب لعباده، المُقْتَدِر عليهم، الذي لا يعجزه شيء أراده وإنما قال ﴿فوق عباده﴾ لأنه تعالى وصف نفسه بقهره إياهم ومن صفة كل قاهر شيئاً أن يكون مستعلياً عليه ﴿وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾ وهو سبحانه الحكيم في تدبير مراده وتنفيذه، العالِمُ بما ظهر من أحوال العباد وما خفي من أمورهم.

﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

شرح المفردات

شهادة: إخبار المرء بما رأى والإقرار بما علم.

لأنذركم: الإنذار هو التحذير والتخويف بما هو وخيم العاقبة.

ومن بَلَغَ: ومن بلغه القرآن من سائر الأمم.

ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً: أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله الكذب.

لا يفلح: لا يفوز ولا ينجح.

شهادة الله بوحدانيته

ويتابع القرآن فيرد على المشركين الذين يجحدون نبوة محمد ﷺ، فقد روي عن ابن عباس أن رؤساء أهل مكة قالوا: يا محمد ما وجد الله غيرك رسولاً وما نرى أحداً يصدقك، وقد سألنا اليهود والنصارى عنك فزعموا أنه لا ذكر لك عندهم فأَرِنا من يشهد لك بالنبوة، فأنزل الله تعالى الآيات التالية:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك الذين يجحدون نبوّتك وينكرونها: من هو أعظم شاهد الذي شهادته أكبر شهادة

وأعظمها؟ ولم يمهلهم القرآن الإجابة على ذلك بل ذكر لهم الشاهد الذي لا يعقل أن تُردّ شهادته: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي قل لهم يا محمد إن أكبر شهادة هي شهادة الله ـ ولا شهادة تعدل شهادته ـ وهو شهيد بيني وبينكم بمن هو على حق ومن هو على باطل، وهو شهيد بأني قد بلّغتكم رسالة الله إليكم ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرآنُ﴾ وقد أوحى الله إليّ هذا القرآن لتهتدوا به ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ لأنذر بهذا القرآن وأُحذّر به المشركين والظالمين والعصاة من العرب ومن يبلغه دعوته وإرشاداته من سائر الأمم من مغبَّة عصيان أوامر الله. أي أن من بلغه القرآن واطلع على ما فيه من إرشادات ووصايا فهو مخاطب به سواء أكان من أمة العرب أم كان من غيرها من سائر الأمم.

ولقد روي عن النبي ﷺ قوله: «يا أيها الناس بلّغوا عني ولو آيةً من كتاب الله، فإنه من بَلَغَهُ آيةٌ من كتاب الله فقد بلغه أمْرُ الله، أخَذَهُ أو تَرَكَهُ»[١].

وروي أيضاً أن النبي ﷺ قال: «بلّغوا عن الله، فمن بَلَغَهُ آيةٌ من كتاب الله فقد بَلَغَهُ أمْرُ الله»[٢].

يُفهم من هذا أن من لم يبلغه القرآن ولا يعلم عنه شيئاً فإنه لا يعتبر أنه قد بلغته الدعوة الإسلامية وإثمه يقع على الذين قصروا في الدعوة إلى الإسلام، وأنه لا معذرة لمن اطلع على القرآن واستمر على كفره. يقول ابن عباس: «من بلغه القرآن فهو له نذير».

كما أن الدعوة إلى الإسلام فرض كفاية إذا قام بها بعض المسلمين سقط الإثم

(١) رواه ابن جرير الطبري في تفسيره.
(٢) نفس المصدر.

عن الباقين. والمسلمون يأثمون جميعاً إذا لم يكن لهم دعاة إلى الإسلام يُبَيّنون حقائقه ويظهرون محاسنه ويردّون على أكاذيب أعدائه بالحجة والبرهان ﴿أَئِنَّكُم لَتَشْهَدُون أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى﴾ والاستفهام هنا إنكاري لإنكار ما وقع منهم من شرك بالله وعبّر بقوله (لتشهدون) للإشارة إلى قوة الضلال المتغلغل في نفوسهم إذ إنهم مع ضلال الفكرة الوثنية فهم يعتقدونها أشد الاعتقاد إذ إن الشهادة لا تكون إلا بالعلم اليقيني. وتسمية الأصنام التي كانوا يعبدونها آلهة مجاراة لهم في زعمهم، فهي في الحقيقة ليست آلهة لأنها جمادات من صنع أيديهم لا تنفع ولا تضر ﴿قُلْ لا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّما هُوَ إِلَهٌ واحِدٌ وإنني بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين لا أشهد بما تشهدون بأن مع الله آلهة أخرى، وقل لهم: إنما المعبود بحق هو إلّه واحد هو الله. وأنا بريء مما تشركون معه في العبادة من أصنام. هذا الشطر من الآية يدل على تأكيد وحدانية الله من ثلاثة أوجه:

أولاً: قوله ﴿لا أشهد﴾ أي لا أشهد على وجود الشركاء لله.

ثانياً: قوله ﴿قل إنما هو إلّه واحد﴾ وكلمة «إنما» تفيد الحصر ولفظ الواحد صريح في توحيد الله.

ثالثاً: قوله ﴿وَأَنَا بريءٌ مِمَّا تُشْرِكونَ﴾ تصريح بالبراءة من إثبات الشركاء لله.

فثبت بذلك وجوب توحيد الله بأعظم طرق البيان وأبلغ وجوه التأكيد.

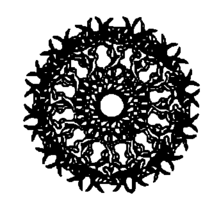
ثم يبين القرآن ضلال أهل الكتاب بادعائهم أن نبوة محمد هي غائبة عن علمهم:

﴿الذين آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أبناءَهُم﴾ الذين أعطاهم الله الكتاب هم اليهود والنصارى فقد أُعطوا التوراة والإنجيل. وعلماء اليهود والنصارى الذين كانوا في زمن النبي محمد ﷺ كانوا يعرفون بأن محمداً هو رسول الله

وذلك بما ثبت عندهم من المبشرات في كتبهم بمجيء نبي من مكة تنطبق صفاته على صفات محمد ﷺ، وكانوا يعرفونه عن يقين كما يعرفون أبناءهم الذين لا يضلّون عنهم لكثرة ملازمتهم لهم.

﴿الَّذِين خَسِرُوا أَنْفُسَهُم﴾ هؤلاء الذين أنكروا نبوة محمد بالرغم مما اجتمع عندهم من الحُجَج والبراهين على صدق نبوّته أهلكوا أنفسهم بإعراضهم عن الحق، وخسروا أنفسهم بحرمانها من نعيم الجنة بسبب كفرهم وجحودهم لنبوة محمد ﷺ ﴿فَهُم لا يُؤْمِنُونَ﴾ فهم لا يصدّقون بما جاء به محمد من الحق والهدى.

﴿وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي لا أحد أشد ظلماً ممن اختلق الكذب على الله وزعم أن الملائكة بنات الله، وأن لله شركاء يُعبدون معه كما كان يعتقد المشركون العرب ﴿أو كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ أو كذب بآيات القرآن المنزلة على رسول الله محمد ﷺ وأنكر الأدلة والحجج الدالة على وحدانية الله ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمونَ﴾ إن الظالمين الذين يختلقون الكذب على الله ويكذّبون بآيات القرآن لا يفوزون بخير لا في الدنيا ولا في الآخرة.



﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

شرح المفردات

نحشرهم: الحشر هو جمع الناس يوم القيامة للحساب.

شُركاؤكم: آلهتكم من دون الله.

تزعمون: تدّعون أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم.

فتنتهم: اختبارهم ومحنتهم.

ضلّ عنهم: غاب وزال عنهم.

يفترون: يكذبون.

أكنة: أغطية جمع (كِنان).

أن يفقهوه: كي لا يفهموه.

وقراً: صمماً وثقلاً في السمع.

إن هذا إلا أساطير الأولين: أي ما القرآن إلا أباطيل ملفقة عن الأمم الماضية.

يَنْـئَوْنَ: يتباعدون بأنفسهم عن القرآن فلا يؤمنون به.

إقرار المشركين بالحق يوم القيامة

ثم يعرض القرآن مشهداً مخزياً للمشركين يوم القيامة وقد وقفوا أمام ربهم فيسألهم: أين آلهتكم؟ فيصيبهم الخزي ولا يعرفون بماذا يجيبون:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي يوم يجمع الله الناس كلهم يوم القيامة ثم يسأل المشركين خاصة على سبيل التوبيخ والتقريع: أين آلهتكم الذين كنتم تزعمون أنهم يشفعون لكم ويقرّبونكم إلى الله؟ أين هم لكي يدافعوا عنكم في هذا اليوم العصيب؟ وأطلق القرآن على آلهتهم وهي الأصنام لفظ ﴿شركاؤكم﴾ لأنهم هم الذين زعموا أنها شركاء لله فأضافها القرآن إليهم من باب التهكم بهم لأنها ليست شركاء لله إلا في اعتقاد المشركين ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ والفتنة: المحنة والابتلاء والعذاب. أي وكان من أثر محنتهم والهول الشديد الذي رأوه يوم القيامة في موقف الحساب أن نسوا ما كانوا عليه من شرك بالله ﴿إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ أي قالوا مقسمين بالله: والله ما كنا مشركين في دنيانا. لقد أقسموا بالله وهم غير صادقين في قسمهم، ونادوا الله معترفين بربوبيته وحده وذلك من فرط الهول والشدة ومن صدق ما رأوه من الحقائق البادية أمام أنظارهم.

﴿انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ أي انظر يا محمد نظرة تأمل واعتبار إلى حال هؤلاء المشركين وكذبهم الصريح باعتذارهم بالباطل ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ وزال عنهم وذهب ما كانوا يختلقون من أن الأصنام تشفع لهم وتنصرهم في ذلك اليوم الرهيب. وقد كان المشركون يستمعون إلى رسول الله حين يتلو القرآن لا ليهتدوا وإنما ليلتمسوا الطعن فيه فقد روي أنه اجتمع أبو سفيان وأبو جهل والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وغيرهم يستمعون القرآن فقالوا للنضر: يا أبا قتيبة ما يقول محمد؟ قال: ما أدري ما يقول إلا أني أراه يحرك لسانه ويقول أساطير

الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية، فقال أبو سفيان: إني لأرى القرآن حقاً[١]، فقال أبو جهل: كلا، فنزلت الآية: ﴿وَمِنْهُم مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ الأكنة هي الأغطية، أي جعل الله على قلوبهم أغطية تحول دون أن يصل كلام الله ونوره إليها ﴿أن يَفْقَهُوهُ﴾ لئلا أو كراهة أن يفهموا ما يستمعونه من القرآن ﴿وفي آذانِهِم وَقْراً﴾ أي وجعل الله في آذانهم صمماً وثقلاً مانعاً لهم من سماعه.

هنا تشبيه للحجب والموانع المعنوية التي تصرف المشركين عن الهداية بالأشياء الحسية فالقلب الذي لا يقبل الحق ولا يستفيد منه هو كالوعاء الذي وضع عليه غطاء فلا يدخل فيه شيء، وهذه الحجب هي ما هم عليه من كبرياء وعناد وتقليد للآباء، كما أن الأذن المصابة بثقل في السمع لا تنتفع بما يصل إليها من الهدى ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ وإن يروا كل معجزة وعلامة تدل على صدق نبوّتك يا محمد لا يصدّقون بها ولا يقرّون بها عناداً واستكباراً ﴿حَتَّى إِذَا جاءوك يُجَادِلُونَكَ﴾ أي لم يكن مجيئهم إليك يا محمد إذعاناً للحق ولكن ليخاصموك ﴿يَقُولُ الَّذِين كَفَروا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ أي ما هذا القرآن إلا ما سطّره الأولون في الكتب من القصص والأخبار من كذب وأباطيل.

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[٢] فهم ينهون الناس عن اتباع رسول الله وعن الاستماع للقرآن، وهم بالإضافة إلى أنهم لا يهتدون فإنهم يمنعون الهداية عن غيرهم ﴿وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ﴾[٣] وهم يبتعدون عن رسول الله ويتجافون عن مجلسه ﴿وَإِن يُهْلِكُون إِلاَّ

---

(١) وقد نفع الله أبا سفيان بكلمته هذه فأسلم هو دونهم ليلة فتح مكة.

(٢) (٣) تأمل هذا الانسجام اللفظي بين (يَنْهَوْنَ) و (يَنْئَوْنَ) ووقعه على السمع وهو ما يسمى في علم البديع «الجناس غير التام».

أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يهلكون بصدّهم عن سبيل الله وإعراضهم عن القرآن إلا أنفسهم، ذلك أنهم بفعلهم هذا يعرّضونها لسخط الله، وهم لا يشعرون أنهم يسيرون في طريق الهاوية ولو شعروا بها لتجنبوا ما هم عليه من ضلال ولآمنوا.

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

شرح المفردات

وُقفوا على النار: حُبسوا عليها يوم القيامة أو عاينوها وأشرفوا عليها.

نُـرَدُّ: نرجع إلى الدنيا.

بـدا لهم: ظهر لهم.

بمبعوثين: البعث إحياء الله الموتى يوم القيامة لمجازاتهم على أعمالهم.

يا حسرتنا: الحسرة شدة الندم على ما فات.

فَـرَّطْـنَـا فيها: قصّرنا وضيّعنا في الحياة الدنيا.

أوزارهم: آثامهم وخطاياهم (جمع وِزْر).

ما يـزِرُون: ما يحملون من الخطايا.

خسارة المشركين بإنكارهم لقاء الله

وبعد أن ذكر الله حال المشركين في إصرارهم على الكفر وجحودهم لنبوة محمد ﷺ بيّن الله في الآيات التالية حالهم يوم القيامة:

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ لو: هي شرطية حذف جوابها لتذهب النفس في تصور الهول كل مذهب. وكلمة ﴿وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾ يفهم منها أن يكونوا عاينوها، أو أُدخِلوها فعرفوا مقدار عذابها، أو وقفوا على الصراط مشرفين عليها، والصراط جسر فوق جهنم. وكلمة ﴿وُقفوا﴾ فعل مبني للمجهول أي أوقفهم غيرهم، والمقصود الملائكة.

والمعنى: ولو ترى يا محمد أو أيها السامع ما يحل بأولئك المشركين من الفزع والهول حين تدخلهم ملائكة العذاب إلى النار ويعاينوا ما ينتظرهم فيها من عذاب لرأيت شيئاً مخيفاً وهولاً مفزعاً لا يحيط به الوصف ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ المؤْمِنِينَ﴾ إن المشركين يتمنون أن يعودوا إلى الدنيا ولا يكذبوا بآيات الله التي جاءهم بها رسوله محمد ﷺ ويكونوا من المؤمنين المتبعين أوامر الله ونواهيه.

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ﴾ بل ظهر لهم ما كانوا يخفونه في الدنيا مِنْ أعمالهم السيئة وأحسوا بقبح ما فعلوا ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي لو أُعيدوا على سبيل الفرض إلى الدنيا كما يتمنون ـ مع العلم أن لا إعادة إلى الدنيا بعد الموت ـ لعادوا إلى الشرك والكفر والمعاصي ﴿وَإِنَّهُم لَكَاذِبُونَ﴾ فيما تضمَّنه تمنّيهم من الوعد بترك التكذيب بآيات الله.

﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ إن: حرف نفي بمعنى ما، فهم نفوا وجود حياة بعد الموت غير التي يعيشونها في دنياهم، كما أنهم نسبوا الحياة إليهم (حياتنا) لاستمتاعهم بها واستغراقهم بشهواتها وملاذّها ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾

كما أنهم أنكروا البعث يوم القيامة وما يعقبه من حساب وجزاء على الأعمال.

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِم قَالَ: أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي ولو ترى ـ أيها المخاطب ـ حال أولئك المشركين حين يقفون للحساب أمام ربهم لرأيت سوء حالهم، فأمرهم لا يقتصر على ما هم عليه من بلاء وعناء بل يُسألون سؤال تأنيب وتبكيت: أليس هذا البعث الذي تشاهدونه الآن هو الحق الذي أنكرتموه من قبل في دنياكم ﴿قَالُوا: بَلَى وَرَبِّنَا﴾ اعترفوا بالبعث بعدما أنكروه سابقاً وأكدوا اعترافهم بالقسم، قال سبحانه: ﴿قَال فَذُوقُوا العَذَابَ بِمَا كُنْتُم تَكْفُرُونَ﴾ فالذوق هنا كناية عن ما سيقاسونه من العذاب الشديد جزاء كفرهم وتكذيبهم لرسول الله.

﴿قَدْ خَسِرَ الذين كَذَّبوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ أي قد خسر سعي أولئك المشركين الذين كذبوا بالبعث وخاب، وهذا الخسران يكون بحرمانهم من نيل ثواب الله واستحقاقهم للعذاب الأليم ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ والساعة[١] هنا هي القيامة سميت بذلك لسرعة الحساب فيها أي حتى إذا جاءتهم القيامة فجأة من غير توقع ﴿قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ والحسرة: هي الندم الشديد وجاء التحسّر بأسلوب النداء لشدة وقع القيامة عليهم فهم ندموا على ما فوّتوا على أنفسهم من الإيمان والعمل الصالح في دنياهم الذي كان سينجيهم من أهوال هذا اليوم ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُم عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ وهم يحملون ذنوبهم وخطاياهم على ظهورهم، وفي هذا مشهد تصويري مليء بالخزي والهوان والذل لهم ﴿أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ ألا بئس ما يحملون من أعمال سيئة أوصلتهم إلى الهلاك والخسران في الآخرة.

﴿وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ أي ما متاع الدنيا في حقيقة أمرها إلا

---

(١) والساعة أصلها في اللغة جزء من الليل أو النهار لا يلحظ فيه التحديد. وأطلقت الساعة معرّفة (بالألف واللام) في القرآن على يوم القيامة.

لعب ولهو، واللهو صرف النفس عن الجد إلى الهزل وعما ينفعها ﴿وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وإن الجنة ونعيمها الدائم في الآخرة خير من الدنيا ومتاعها الزائل، وهي للذين اتقوا ربهم بطاعته وترك معصيته ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تستعملون عقولكم وتدركون أن الإقبال على الدنيا بشهواتها وملاذّها مهلك، وأن العمل للآخرة بتقوى الله هو السبيل للسعادة والنجاة.

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

شرح المفردات

يجحدون: الجحود، الإنكار مع العلم.

لكلمات الله: الآيات التي وعد الله بها المؤمنين بالنصر.

كَبُرَ عليك: عَظُمَ وشق عليك.

تبتغي: تطلب.

نفقاً: القناة أو الحفرة تحت الأرض.

بآية: بمعجزة كونية.

يستجيب: الاستجابة، هي الإجابة المقرونة بالقبول.

يبعثهم الله: يُحييهم بعد مماتهم.

لولا: حرف يدل على الحث والتحضيض مِثل: هلاّ.

مواساة لرسول الله ووعده بالنصر

ثم تأتي الآيات التالية تواسي رسول الله محمد ﷺ وتخفف من حزنه بسبب ما يلاقيه من قومه من إيذاء وإعراض عن دعوته، قال تعالى:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ﴾ أي قد أحاط علمنا يا محمد. بما يحزنك مما يقول المشركون بما لا يليق بك من أنك ساحر كذاب وشاعر ومجنون، ومفترٍ على الله، ولم تذكر هذه الآية تلك الأوصاف التي كان المشركون يقولونها في حق رسول الله تلطفاً به ﴿فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ﴾ فإنهم لا يكذبونك يا محمد لذاتك فقد كنت مشهوراً بينهم بالصدق والأمانة ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ والآيات: هي آيات القرآن أو المعجزات والدلائل على صدق نبوّة محمد ﷺ، والجحود: هو الإنكار مع العلم، فالله سبحانه أخْبَرَ رسوله محمداً بأن المشركين لا يكذبونه ولكنهم أهل جحود ومكابرة، فهم ينكرون بأن القرآن من عند الله مع علمهم بأنه الحق، كما وصفهم بالظلم لأن الظالم يجري على خلاف الحق.

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبوا وَأُوذُوا﴾ فالله سبحانه يقول لرسوله محمد ﷺ: إن ما تلاقيه من تكذيب وإيذاء من قومك قد حصل للرسل قبلك فصبروا على هذا التكذيب والإيذاء، وفي هذا مواساة لرسول الله ﷺ لأن البلوى إذا عمّت هانت ﴿حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ أي فاصبر يا محمد كما صبر رسل

الله قبلك حتى يأتيك النصر كما جاءهم، وفي هذا بشارة له بأن الله سينصره على أعدائه ﴿ولا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ﴾ ولا مغيّر لكلمات الله وآياته التي أنزلها على رُسُله ووعدهم فيها بالنصر على أعدائهم، فإن الله لا يُخلف وعده، وأحكامه لا تُنقض، ولقد جاء في القرآن: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]. ثم ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿وَلَقَدْ جاءَكَ مِن نَبَإِ المُرْسَلِينَ﴾ أي ولقد جاءك يا محمد من أخبار الرسل مما قصّه الله عليك ما فيه من العظات والعِبَر بما يطمئن بها قلبك.

﴿وَإن كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إعْراضُهُمْ﴾ وإن كان قد شقّ عليك يا محمد وعَظُم عليك إعراضهم ورفضهم لدعوتك ﴿فَإنِ اسْتَطَعْتَ أن تَبْتَغِيَ نَفَقاً في الأَرضِ أو سُلَّماً في السَّماءِ﴾ أي فإن استطعت أن تتخذ طريقاً في باطن الأرض أو سلّماً تصعد به إلى السماء ﴿فَتَأْتِيَهُم بِآيَةٍ﴾ فتأتيهم بمعجزة ودليل على صدقك بأنك نبي فافعل ولكن ليس في قدرتك ذلك ﴿وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُم عَلَى الهُدَى﴾ أي لو شاء الله هدايتهم لحملهم جميعاً على الإيمان قسراً وقهراً أو طوعاً ولكن الله لم يشأ ذلك لسوء طويتهم بل تركهم ليختاروا الإيمان أو الكفر بإرادتهم ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾ والجهل ضد العلم، أي فلا تكن يا محمد من الذين لا يعلمون حكمة الله وسنّته في خلقه. ويجوز أن يكون الجهل في الآية ضد الحلم، أي لا تضق صدراً بإعراضهم عنك.

﴿إنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ إنما يستجيب لدعوتك يا محمد أولئك الذين يسمعون آيات الله سماع تدبّر وفهم ﴿وَالمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ وأما هؤلاء الذين لا ينتفعون بدعوتك إياهم إلى الإيمان فهم في حكم الأموات وسيبعثهم الله يوم القيامة أحياء ﴿ثُمَّ إلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ثم مصيرهم إلى الله فيحاسبهم على ما فعلوه في دنياهم.

﴿وقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ الآية: المراد بها المعجزة، أي وقال المشركون: هلاّ أُنزِلَ على محمد معجزة من ربه تدل على صدقه كالمعجزات التي أنزلها الله على رسله ﴿قُلْ إنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَن يُنَزِّلَ آيَةً﴾ قل لهم يا محمد إن الله قادر على أن يأتيهم بما اقترحوا من المعجزات ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ ولكن أكثرهم ليسوا من أهل العلم والعقل، لأنهم غفلوا عن الحكمة في عدم تحقيق ما سألوا، وهي أن الله لم يشأ إهلاكهم لأن سنّة الله جرت في خلقه بأنه سبحانه إذا أجاب قوماً إلى ما طلبوا من معجزات ثم لم يؤمنوا عند مجيئها أصابهم عذاب الاستئصال كما جرى للأمم التي كانت قبلهم.

وإن المعجزة الكبرى التي أيّد الله بها رسوله محمداً والتي غفل عنها الكثيرون هي القرآن المعجز ببلاغته وما اشتمل عليه من أنباء غيبية وإشارات إلى حقائق علمية توصَّل العلم حديثاً إلى كشف أسرارها. كما أن معجزته تكمن في التشريعات التي قدمها في الاقتصاد ونظام الحكم والأسرة والعلاقات الدولية والتي تفوق في سموها ما شرعته الأمم من قوانين ودساتير في هذا الخصوص، بالإضافة إلى ما في القرآن من الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة، والعبادات الجامعة بين مطالب الروح والجسد، والإيمان بوحدانية الله عن طريق التفكر في خلق السماوات والأرض، كما أن في القرآن حياة رسل الله ومواقفهم العظيمة وتضحياتهم وسموّ أفعالهم التي نجد فيها القدوة لكل من يبتغي السمو الإنساني.

ولقد تحدّى القرآن الأمم والجماعات التي تُنكر أنه من عند الله أن يأتوا بمثله أو بعشر سور بل بسورة مثل سُوَر القرآن فعجزوا واستمر عجزهم إلى عصرنا الحاضر وهذا مما يثبت أن القرآن كلام إلّهي وليس من صُنع البشر.

ومما يؤيد ذلك أيضاً أن القرآن جاء على لسان رجل أُمِّيّ لا يعرف القراءة والكتابة

ولم يدرس على يد العلماء ولم يقرأ مئات الكتب ولم يطّلع على ثقافة الأمم، ألا يدل كل ذلك على أن القرآن هو المعجزة الكبرى التي أيّد الله بها رسوله محمداً ﷺ؟

هذا وإن معجزة القرآن الكريم هي معجزة عقلية وفي مرأى من الجميع لِكُلّ العصور خلاف معجزات الأنبياء الحسية التي رآها المعاصرون للأنبياء ثم ضعف تأثيرها على الأمم التي جاءت بعدهم، فالدليل والبرهان الذي يبقى قائماً كمعجزة القرآن تأثيره على الأنفس أقوى من الدليل الذي غاب وانقضى ولا يعرف إلا بالخبر والسماع كما هو شأن معجزات الأنبياء السابقين.

وكما أيّد الله رسوله محمداً بالقرآن أيده بالنصر وبكثير من المعجزات الأخرى كانشقاق القمر، وإخباره بالمغيّبات، وإنباع الماء من بين أصابعه وتكثير الطعام إلى غير ذلك مما روته كتب الأحاديث الشريفة.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

شرح المفردات

ما فرّطنا في الكتاب من شيء: ما أغفلنا وتركنا في اللوح المحفوظ من شيء لم نثبته.

يُحشرون: يُجمعون.

صمّ: جمع أصم وهو من فقد سمعه.

بُكم: جمع أبكم وهو الأخرس.

في الظلمات: ظلمات الجهل والعناد والكفر.

صراط: طريق.

أرأيتكم: أخبروني عن عجيب أمركم.

الساعة: القيامة.

بالبأساء: شدة الفقر.

الضراء: المرض.

يتضرعون: يتذللون لله تعالى ويتوبون إليه.

بأسنا: عذابنا.

ذُكِّروا به: وُعظوا به.

أخذناهم بغتة: أنزل الله بهم العذاب فجأة.

مُبلسون: متحيرون يائسون من النجاة.

فقُطع دابر القوم: أهلكوا جميعاً بحيث لم يبق منهم أحد.

إنذار المكذبين بآيات الله

ثم ذكر الله سبحانه بعض الآيات الكونية التي تنبىء عن قدرة الله سبحانه في مخلوقاته.

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ﴾ والدابة ما يدب ويتحرك على وجه الأرض من الحيوان ﴿ولا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ وصف الطائر بأنه يطير بجناحيه إشارة إلى كمال القدرة الإلهية التي خلقت الطير على هذا الشكل بحيث يسبح في الفضاء ﴿إلا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ أي أن دواب الأرض وأنواع الطيور خلقها الله جماعات لها خصائص تقرب من خصائص البشر، أي أن لها عقلاً متواضعاً تدبر به أمورها بجانب غرائزها.

هذه حقيقة علمية اعترف بها العلم حديثاً، فقد دل على أن جماعات الحيوان يربط آحادها رباط اجتماعي وثيق العرى وأن منها ما يعيش على صورة ممالك ذات نظم ثابتة كالنمل والنحل وغيرها ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيءٍ﴾ التفريط في الشيء: تضييعه وتركه وإهماله، والمراد بالكتاب: اللوح المحفوظ[1]، أو القرآن الكريم. وإذا كان المراد بالكتاب اللوح المحفوظ فإنه مشتمل على ما يجري في العالم من جليل ودقيق لم يُهمل فيه أمر حيوان ولا جماد ولا سواهما ما كان وما سيكون. وإذا كان المراد به القرآن الكريم فيكون المعنى: ما تركنا في القرآن شيئاً مما يحتاج إليه الناس من أمر الدِّين والدنيا إلا بيّناه ووضحناه إما بالتفصيل أو بالإجمال أو بالإشارة. وليس معنى هذا أن في القرآن تفاصيل علوم البشر ومذاهب الاجتماع أو تقنيات العلوم وغيرها، ولكن القرآن جاء بالأسس التي عليها صلاح البشرية والتي وضّح الكثير منها رسول الله ﷺ ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم يُحْشَرُونَ﴾ ثم إن دواب الأرض

---

(١) اللوح المحفوظ: شيء لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، ويوصف بأنه مستودع لما كان ويكون مما يعلمه الله وقدّر أن يعمله.

وطيور الجو تُجمع مع كل الأمم يوم القيامة فينصف بعضها من بعض.

﴿وَالَّذِين كَذَّبوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ﴾ أي والذين كذبوا بآيات القرآن وبالحجج الدالة على وحدانية الله مَثَلُهم في جهلهم وعدم تدبرهم لها، كمثل الأصمّ الذي لا يسمع من يرشده إلى الهدى وكمثل الأبكم الذي لا يستطيع أن ينطق بالحق، وحال هؤلاء كحال من هم ﴿في الظُّلُمَاتِ﴾ أي في ظلمات الكفر والجهل والحيرة لا يهتدون إلى ما فيه صلاحهم كما لا يهتدي السائر في الظلام إلى ما يسعى إليه ولا يظفر به ﴿من يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ أي من يشإ الله إضلاله لفساد طويته يتخلى عنه فلا يهتدي إلى خير ﴿وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ومن يشأ الله هدايته لطيب عنصره يجعله على طريق الحق.

أما الهداية والإضلال من الله فقد بيّن القرآن أنهما عن سابقة استحقاق كما جاء في النصوص الآتية: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩].

ثم يبيّن الله مبلغ جهل المشركين بعبادتهم الأصنام ولجوئهم إليها بالدعاء عند الملمات: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُم إنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أو أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ﴾ أرأيتكم[١]: بمعنى أخبروني، وهذه الكلمة تستعمل للتنبيه والحث على التأمل.

(١) أرأيتكم: أي أرأيتم، والكاف هنا للخطاب لا محل لها من الإعراب فهي زائدة للتوكيد، وهذه الصيغة منقولة عن فصحاء العرب ولا تستعمل إلا لطلب معرفة شيء له حالة عجيبة.

والمعنى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين أخبروني إن أتاكم عذاب الله كما أتى غيركم من الأمم الظالمة من قبل: كالخسف، والريح الشديدة العاتية، والصاعقة، والطوفان، أو أتتكم القيامة بأهوالها وشدائدها في الآخرة ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُم صَادِقِينَ﴾ أي أتدعون غير الله لينجيكم من عظيم ما نزل بكم من البلاء إن كنتم صادقين بزعمكم أن آلهتكم، وهي الأصنام، تنفعكم آنذاك؟

وقد كانت طبيعة المشركين أنهم إذا أصابتهم شدة وبلاء تركوا اللجوء إلى أصنامهم وتوجهوا بالدعاء إلى الله ليكشف الضر عنهم لاعتقادهم أن أصنامهم لا تنفعهم ولا تجيب دعاءهم، فالفطرة الإنسانية حتى عند الملحدين تلجأ إلى الله وحده عندما يحيق بها الخطر، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا تتوجهون أيها المشركون بالعبادة إلى غير الله؟

﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ بل الله وحده تدعونه عند نزول البلاء بكم وحين تحيط بكم المخاطر فيكشف الضر الذي تدعون ربكم إلى كشفه إن شاء، والتعبير بالمشيئة الإلهية لبيان أن إجابة دعائهم غير مطردة بل هي تابعة لمشيئة الله ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ وفي تلك الحالة تنسون آلهتكم وتغيب عن عقولكم تلك المعبودات الباطلة.

ثم يبيّن الله العاقبة السيئة التي تنتظر المشركين إذا استمروا على ضلالهم:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ أي ولقد أرسلنا رُسُلاً إلى الأمم من قبلك يا محمد ﴿فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ والضَّرَّاءِ لَعَلَّهم يَتَضَرَّعُونَ﴾ فعاقبنا تلك الأمم بالشدائد كالقحط والجوع والفقر والأوبئة لعلّهم يتهلون ويتذللون إلى ربهم تائبين من كفرهم ومعاصيهم.

﴿فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾ لولا: هي هنا للحض والتوبيخ، أي هلاّ حين جاءتهم الشدة والعذاب ابتهلوا إلى الله خاضعين له متذللين ﴿وَلَكِن قَسَتْ

﴿قُلُوبُهُم﴾ أي صلبت وغلظت فلم ينزجروا مما هم عليه من الكفر ولم يتوجهوا إلى الله بالدعاء والاستغفار ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وَحَسَّنَ لهم الشيطان ما كانوا يعملون من الشرك والمعاصي فجعلها في أعينهم حسنة، وجعل ما جاء به الأنبياء من الهدى في نظرهم قبحاً وضلالاً.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ فلما تركوا الاتعاظ بما ابتلاهم الله من الفقر والمرض والشدائد واستمروا على كفرهم وتكذيبهم لرسل الله ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوابَ كُلِّ شَيءٍ﴾ أي نقلهم الله من حالة الشدة إلى ضدها بأن فتح أبواب الخيرات عليهم من سعة الرزق ورخاء العيش، وهذا التعبير ﴿أَبْوَابَ كُلِّ شَيءٍ﴾ فيه صورة لإقبال الدنيا عليهم بجميع نِعَمِهَا، وهذا اختبار لهم بالنعمة بعد أن اخْتَبَرهم بالشدة ليرجعوا عن ضلالهم ويتوبوا من كفرهم ومعاصيهم كما جاء في موضع آخر من القرآن ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

﴿حَتَّى إذا فَرِحُوا بما أُوتُوا﴾ أي حتى إذا فرحوا بما أُعطوا من النعم بطراً وغروراً بها ﴿أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾ أخذهم الله بالعذاب فجأة من غير ترقّب، وإنما أُخذوا وهم في تلك الحالة من الرخاء ليكون وقعه أشد عليهم لتحسُّرهم على ما فاتهم من النعيم ﴿فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ أي يائسون من كل خير، وقيل: المُبلِس الشديد الحسرة الحزين ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي فهلك أولئك القوم الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسل الله واستؤصلوا عن آخرهم فلم يبق منهم أحد ﴿وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالمينَ﴾ والثناء على الله والشكر له بعد أن طهّر الأرض من أولئك الظالمين الذين لم يتعظوا بما جاءهم من النقم والنعم بل ظلوا على كفرهم وعنادهم ومناوءتهم لرسل الله.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ ﴾.

شرح المفردات

أرأيتم: أخبروني.

وختم على قلوبكم: أي غطاها فأصبحت لا تعقل.

عذاب الله بغتة أو جهرة: أي جاءهم العذاب فجأة بدون أمارات، أو ظاهراً تسبقه علامات.

نصرّف الآيات: نبيّن الحجج والبراهين على قدرتنا.

يصدفون: يُعرضون.

يمسّهم العذاب: يصيبهم العذاب.

يفسقون: يخرجون عن طاعة الله بالكفر والمعاصي.

خزائن الله: المراد بها مقدوراته أو التي منها يُرزق العباد.

الأعمى والبصير: الأعمى هو الضالّ، والبصير هو المهتدي.

وأنذِر: الإنذار هو التخويف والتحذير من سوء أفعالهم.

وليّ: ناصر.

تحذير للمشركين وإنذار لهم بالعذاب

ثم يبين الله فضله على الناس محذراً المشركين من التمادي في كفرهم:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُم إن أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُم وَأَبْصَارَكُمْ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين لك: أخبروني إن أزال الله سمعكم وأبصاركم. والأخذ: انتزاع الشيء وتناوله من مقره وهو هنا مجاز في السلب والإزالة ﴿وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُم﴾ وغطى على قلوبكم بحيث تصبح لا تفهم شيئاً. فالسمع والبصر هما مفتاح المعرفة والتفاهم بين الناس والسعي لتحصيل الرزق، والقلوب تستعمل في القرآن مصادر للفهم والإدراكات العقلية[١]، فلو أخذ الله هذه الجوارح والحواسّ وأزالها من الإنسان أصبح عديم النفع لا معنى لحياته ووجوده على هذه الأرض ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي من هي هذه الآلهة التي تعبدونها من غير الله تستطيع أن تأتيكم بما أخذه الله منكم ﴿أنظُر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ انظر نظرة تأمل كيف نوّع الحجج والبينات لهم لعلّهم يعتبرون ثم هم مع هذا يعرضون عن تدبرها والانتفاع بها ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُم إنْ أَتَاكُم عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَو جَهْرَةً﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين تبكيتاً لهم: أخبروني إن جاءكم عذاب الله في الدنيا فجأة بدون مقدمات تنبهكم إليه، أو جهرة تسبقه علامات تدل عليه ﴿هَلْ يُهْلَكُ إلاَّ القَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ الاستفهام هنا للنفي أي ما يهلك الله إلا الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله وتكذيب الرسل ومعصية الله.

﴿وَمَا نُرْسِلُ المرْسَلِينَ إلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ﴾ أي وما يرسل الله رسله إلى خلقه إلا مبشرين المؤمنين الصالحين بالخبر السار بما ينتظرهم من حسن الثواب في

---

(١) القلب هو سر الحياة، فهو الذي يضخ الدم إلى جميع أعضاء الإنسان، ومنها المخ فهو سبب لنشاطه العقلي، لهذا أسند الله الفهم والعقل والفكر إلى القلب مجازاً.

الآخرة، كما يُرسل الله رسله منذرين ومخوفين الكفار الذين عصوا ربهم بالعذاب الأليم إذا استمروا على كفرهم ﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فمن آمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأصلح عمله وفق شريعة الله فلا خوف عليهم من عقاب يصيبهم، ولا هم يحزنون على فوات الثواب لأنهم استحقوه بإيمانهم وعملهم الصالح.

﴿والَّذين كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ والذين كذبوا بآيات الله المنزلة على الرسل، وبالمعجزات التي أيدهم الله بها ﴿يَمَسُّهُمُ العَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ فهؤلاء يصيبهم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة بسبب خروجهم عن طاعة ربهم.

ولما كان المشركون قد اقترحوا على رسول الله جملة مقترحات تعجيزية فوق مقدور البشر لذا أمر الله رسوله أن يجيب على مقترحاتهم بقوله:

﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُم عِنْدي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ قل لهم يا محمد ليس عندي خزائن رزق الله فأعطيكم ما تريدون لأن المشركين كانوا يقولون لرسول الله: إن كنت رسولاً من عند الله حقاً فاطلب منه أن يوسع رزقنا ويُغنينا ﴿وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ﴾ وأخبرهم يا محمد بأنك لا تعلم الغيب بما سيقع في المستقبل، وذلك لأن المشركين قالوا أخبِرنا بما ينفعنا وما يضرنا في المستقبل حتى نستعد لتحصيل ما ينفعنا ودفع ما يضرنا ﴿ولا أَقُولُ لَكُم إنّي مَلَكٌ﴾ وأخبرهم يا محمد أيضاً بأنك لست ملكاً من الملائكة حتى تكلفوه من الأفعال الخارقة بما لا يطيقه البشر كالصعود إلى السماء وغير ذلك ﴿إن أَتَّبِعُ إلاَّ ما يُوحى إلَيَّ﴾ إن هنا حرف نفي، أي قل لهم: ما أنا إلا بشر أتَّبِع ما يوحي الله إليَّ وأعمل بمقتضاه فلا تطلبوا مني ما ليس من شأني وقدرتي ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ﴾ وقل لهم يا محمد هل يستوي الكافر الذي عمي عن الحق ولم يستجب له، مع المؤمن الذي أبصر الحق فآمن بوحدانية الله، وعمل

بطاعته، والاستفهام في الآية للإنكار، أي كما لا يتساوى أعمى العينين وبصيرهما فكذلك لا يتساوى المهتدي والضالّ ﴿أفلا تتفكّرون﴾ تقريع وتوبيخ للمشركين، أي أفلا تسمعون هذا الكلام الحق وتفكروا فتُميّزوا بين ضلال الشرك وهداية الإسلام؟

﴿وأنذرْ بهِ الّذين يخافون أنْ يُحشَروا إلى ربِّهم﴾ الإنذار: إعلام مع تخويف، أي وخوِّف يا محمد بهذا القرآن الذين يخافون من هول يوم القيامة حين تسوقهم الملائكة وتجمعهم إلى ربهم ليجازيهم على أعمالهم ﴿ليس لهُم مِنْ دُونهِ وليٌّ ولا شفيعٌ﴾ ليس لهم غير الله نصير يحميهم ولا شفيع يخلّصهم من عذاب الله إن هم عصوا ربهم ﴿لعلّهُم يتّقونَ﴾ لعلّهم يتقون عذاب الله بطاعته وترك ما نُهوا عنه.

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ

إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

شرح المفردات

بالغداة والعَشِيِّ: في أول النهار وآخره والمراد كل الأوقات أي ما بين الغداة والعشي.

يريدون وجهه: يريدون الإخلاص لذاته لا لغرض من أغراض الدنيا.

فتنّا: ابتلينا وامتحنا.

كتب ربكم على نفسه: قضى وأوجب تفضلاً وإحساناً.

بجهالة: بسفه وسوء رأي.

نفصّل الآيات: نبيّن آيات القرآن.

بيّنة: حجة.

ولتستبين: ولتتضح.

يقص الحق: يقول الحق فيما يحكم به.

تدعون: تعبدون.

كبرياء المشركين وضلالهم

ويتابع القرآن فيذكر ما كان يتصف به المشركون من كبرياء تحول بينهم وبين اتّباع رسول الله والانضمام إلى جماعة المؤمنين الفقراء الذين استجابوا لرسول الله. فقد روي أنه مر أشراف من قريش برسول الله وعنده صهيب وبلال وعمّار وخبّاب وغيرهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أهؤلاء منّ الله عليهم من

بيننا؟ أنكون نحن أشراف قومنا تَبعاً لهؤلاء؟ اطردهم فلعلك إن طردتهم نتبعك، فنزلت الآية:

﴿ولا تَطْرُدِ الَّذينَ يَدْعُون رَبَّهُم بِالغَدَاةِ والعَشِيِّ﴾ أي لا تستجب أيها النبي لدعوة المتكبرين من الكفار فَتُبْعِد عنك المستضعفين من المؤمنين الذين يعبدون ربهم طرفي النهار أوله وآخره، أي يصلّون عامة الأوقات لأنه يكنى بطرفي الشيء عن جملته وهي الصلوات الخمس ﴿يُريدونَ وَجْهَهُ﴾ المراد بالوجه الذات أي مخلصين العبادة لله سبحانه لا يريدون إلا رضاه ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِنْ شيءٍ﴾ أي ما عليك ـ أيها النبي ـ شيء من أمر حساب هؤلاء المؤمنين على أعمالهم، ولا عليك رزقهم ولا هم يرزقونك ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِنْ شَيءٍ﴾ أي وليس عليهم شيء ما من أمر حسابك على أعمالك لأن كل واحد مؤاخذ بحساب عمله عند ربه، فحسابهم عند ربهم لازم لهم لا يتعداهم إليك كما أن حسابك عند ربك لا يتعداك إليهم ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمينَ﴾ أي إن طردت هؤلاء المؤمنين الفقراء المستضعفين استجابة لرغبة أشراف قريش وأثريائهم تكون من جملة الظالمين الذين يضعون الشيء في غير موضعه ويخرجون عن جادة الحق.

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي ومثل ذلك الابتلاء من التفاوت بين المؤمنين والكفار ابتلينا واختبرنا بعض الناس ببعض بالغنى والفقر، والقوة والضعف والعز والذل، فكلا الفريقين المؤمنين والكافرين مبتلى بصاحبه. فرؤساء الكفار وأشرافهم كانوا يحسدون فقراء المؤمنين لكونهم سابقين إلى الإسلام، وإنهم لو دخلوا إلى الإسلام لوجب عليهم أن ينقادوا لهم ويعترفوا لهم بالتبعية والمساواة بهم وهذا شيء يشق عليهم ﴿لِيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنْ بَيْنِنَا﴾ الاستفهام للإنكار والتعجيب، أي كي يقول هؤلاء الكفار الأثرياء: أهؤلاء الفقراء

الضعفاء تفضّل الله عليهم دوننا بالهدى والرشاد ونحن الأغنياء الأقوياء فهم في نظرهم هم المفضلون عند الله بما أعطاهم من الغنى والجاه ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ هذا الاستفهام للتقرير أي أن مرجع الاستحقاق لنعم الله سبحانه هو الشكر له، والله أعلم بمن يشكرون فضله وإنعامه فهو يلطف بهم ويسهل لهم الإيمان ويحببه إليهم.

﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ وإذا جاءك يا محمد المؤمنون الذين يصدّقون بآيات القرآن فقل لهم تكريماً: سلام عليكم. نزلت هذه الآية في الذين نهى الله رسوله محمداً عن طردهم فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام تطيباً لخواطرهم وقال الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام. والسلام اسم بمعنى الدعاء بالسلامة فمعنى سلام عليكم: إنني أدعو الله بأن يسلمكم من الآفات في دينكم وأنفسكم، والسلام أيضاً بمعنى الأمان، وهي كلمة كانت العرب تقولها عندما يلتقي المرء بغيره دلالة على أنه مسالم له لا محارب، لأن العرب كانت بينهم صراعات قبل الإسلام وأخذ بالثأر فكان الرجل إذا لقي من لا يعرفه لا يأمن أن يكون بينه وبين قبيلته عداوة فيؤمّن أحدهما الآخر بقوله: السلام عليكم ثم شاع هذا اللفظ في التحية ﴿كَتَبَ رَبُّكُم عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي أوجب ربكم على ذاته العلية الرحمة إيجاب فضل وإحسان، وله سبحانه أن يوجب على نفسه ما شاء ولا يوجب عليه أحد شيئاً، فالرحمة من شأن ربوبية الله التي وسعت كل شيء ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُم سُوءاً بِجَهَالَةٍ﴾ أي من عمل منكم خطيئة وهو جاهل لما ينشأ عنها من المضرة والعقاب في الآخرة وما فاته من الثواب باقترافها ففعله هذا من أفعال الجهلة، فالمؤمن لا يباشر عملاً يعلم أنه يؤدي إلى الضرر في دينه ودنياه. أو بمعنى: أنه جاهل الحلال من الحرام ﴿ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ والتوبة ندم أي ثم ندم على فعله وأصلح ما أفسده تداركاً وعزماً على أن لا يعود إليه أبداً ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾ فإن الله يغفر له لأنه سبحانه كثير المغفرة واسع الرحمة.

وهؤلاء المؤمنون المستضعفون أكرمهم الله بكرامتين: **الأولى** أن يبدأهم النبي ﷺ بالسلام حين دخولهم عليه وهي مزية لهم لأن شأن السلام أن يبدأه الداخل على إنسان والكرامة **الثانية** هي بشارتهم برضى الله عنهم بأن غفر لهم ما عملوا من سوء إذا تابوا من بعده وأصلحوا. ثم يقول سبحانه:

﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ التفصيل: التبيين الذي تظهر به المعاني، أي كما فصلنا في هذه السورة الدلائل والحجج على بطلان الإشراك بالله كذلك نفصّل لكم الآيات في كل ما تحتاجون إليه من أمر الدين والدنيا **﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ المجْرِمِينَ﴾** أي وليتضح لك يا محمد وللمؤمنين سلوك المجرمين فتعاملوهم بما يستحقون.

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَن أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل لهم يا محمد إني نهيت من الله تعالى أن أعبد معكم الأصنام التي تعبدونها من دون الله **﴿قُل لا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُم﴾** وقل لهم لا أتبع أهواءكم في عبادتكم للأصنام فعبادتكم لها قائمة على محض الهوى والتقليد لا على سبيل العقل والدليل لأنها جمادات منحوتة بأيديكم لا تنفع ولا تضر **﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أنا مِنَ المُهْتَدِينَ﴾** أي إن اتبعت أهواءكم وجاريتكم بعبادة الأصنام فأنا ضالّ وما أنا من المهتدين، وكأنه بذلك يقول لهم: أنتم ضالّون بعبادتكم للأصنام.

﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ﴾ المراد بالبيّنة: اليقين والحجة الواضحة، أي قل لهم يا محمد إني على يقين في شأن وحدانية ربي وكذّبتم أنتم بربكم حيث جعلتم له شركاء عبدتموها معه ومن جعل لله شركاء فقد كذّب بوحدانيته وكذّبتم بما جاءكم به رسول الله من الهُدَى **﴿مَا عِنْدِي ما تَسْتَعْجِلونَ**

بِهِ﴾ أي ليس عندي القدرة على إنزال عذاب الله الذي تستعجلون نزوله، وقد كان المشركون يستعجلون العذاب الذي توعّدهم الله به على لسان رسوله تحدّياً وإنكاراً ﴿إِنِ الحُكْمُ إلاّ لِلَّه يَقُصُّ الحَقَّ﴾ أي ما الحكم في نزول ذلك العذاب تعجيلاً وتأجيلاً إلا لله تعالى، فهو سبحانه يقول الحق لأن كل ما أَخْبَرَ به فهو حقّ وفي قراءة ﴿إِنِ الحُكْم إلاّ لِلَّه يَقْضي الحقَّ﴾[1] بمعنى الحكم، أي يحكم بالحق ولا يجور في حكمه ﴿وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلينَ﴾ وهو خير من يفصل بين الحق والباطل في قضايا خلقه.

﴿قُلْ لَو أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بيني وَبَيْنَكُم﴾

قل لهم يا محمد: لو أن في قدرتي إنزال العذاب الذي تتعجلون نزوله لأنزلته عليكم غضباً لربي وانتهى الأمر بيني وبينكم ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمينَ﴾ والله سبحانه أعلم بالظالمين وبالوقت المناسب لنزول العذاب بكم، فهو سبحانه يعجّل العذاب للظالمين أو يؤخره حسب حكمته.



١) يقول ابن جرير: هذه القراءة أولى بالصواب لما جاء بعدها ﴿وهو خير الفاصلين﴾ لأن الفصل بين المختلفين إنما يكون بالقضاء لا بالقصص.

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

شرح المفردات

مفاتح الغيب: معرفة الأمور التي تغيب عنا.

يتوفّاكم بالليل: يُنيمكم في الليل.

جرحتم بالنهار: ما كسبتم من الأعمال بالنهار.

يبعثكم: يوقظكم في النهار.

أجل مسمى: وقت محدد لكل واحد ينتهي إليه عمره.

وهو القاهر فوق عباده: أي هو الله الغالب على خلقه العالي عليهم بقدرته.

حفظة: ملائكة تحفظكم وتحصي عليكم أعمالكم.

توفّته رسلنا: قبضت روحه ملائكة الله.

لا يفرّطون: لا يقصّرون ولا يتوانون.

أسرع الحاسبين: يحاسب جميع الخلائق في أسرع زمان وأقصره.

مدى علم اللّه وقدرته في الكون

ويتابع القرآن فيبيّن شمول علم الله وقدرته لكل جزئيات هذا الكون ودقائقه:

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلاَّ هُوَ﴾ مفاتح: جمع مِفتح بكسر الميم وهو المفتاح أي الآلة التي يفتح بها الخزائن. وقد تكون مفاتح جمع مفتح بفتح الميم وهو المخزن. فالله سبحانه جعل للأمور الغيبية مخازن تخزن فيها، وهذا التعبير على سبيل الاستعارة، أو إنه سبحانه جعل للأمور الغيبية مفاتح يُتوصل بها إلى ما في المخازن من الأمور الغيبية.

فخزائن الغيب أي ما غاب علمه عن الخلق هي في علم الله تعالى وفي تصرُّفه وحده وإن المفاتيح وهي الوسائل التي يُتوصل بها إلى علم الغيب هي عنده سبحانه تعالى أيضاً. فالله سبحانه اختص بأسباب علم الغيب والطرق الموصلة إليه، وقد خصّ الله رسله ببعض الغيب كما قال تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا. إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٦ ـ ٢٧].

أما العرّافون الذين يدّعون علم الغيب كقول أحدهم لمن يستخبرهم عن مستقبلهم عن طريق الكف أو قراءة الفنجان: إنك ستكسب كذا أو تتزوج فلانة أو نحو ذلك فهو رجم بالغيب وهو من الآثام الكبيرة، وإثم ذلك يقع على المخبِر والمستخبِر.

وكذلك الذين يدّعون أن حظوظ الناس وأعمالهم يمكن أن تُعرف من تحركات القمر ومواقع النجوم فيقولون: إن مواليد شهر كذا الملقب ببرج الحمل ومواليد شهر كذا الملقب ببرج الأسد وغير ذلك من مسميات سيحصل لهم من الأمور كذا وكذا وهذه كلها من الخزعبلات. وإن الذين درسوا علم الفلك الحديث يعرفون أنه لا صحة للتنجيم على الإطلاق.

والمؤمنون منهيّون عن إتيان العرّافين فقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ قوله:

«من أتى عَرَّافاً فسأله عن شيء، لم تُقبل له صلاة أربعين ليلة»[١].

وروي عن النبي ﷺ قوله: «من أتى عرَّافاً أو كاهناً[٢] فصدَّقَهُ بما يقول فقد كَفَرَ بما أُنْزِلَ على محمَّد ﷺ»[٣].

﴿وَيَعْلَمُ ما في البَرِّ وَالبَحْرِ﴾ ويعلم الله سبحانه ما يحتويه البر من النبات والأحياء والمعادن، وما يحتويه البحر من كائنات حية وغيرها ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلاّ يَعْلَمُهَا﴾ وما تسقط ورقة من أوراق الشجر أو النبات إلا وهي في عِلْمِ الله سبحانه ﴿ولا حَبَّةٍ في ظُلُمَاتِ الأرْضِ﴾ وما تسقط حبة من الحبوب التي يلقيها الزارع في الأرض ويطمرها أو الحبوب التي تسقط من النبات بدون فاعل وتصبح في طبقات الأرض إلا ويعلمها الله ﴿وَلاَ رَطْبٍ ولا يَابِسٍ﴾ ويعلم سبحانه أيضاً كل رطب ويابس من النبات والثمر أو غير ذلك ﴿إلاّ في كِتَابٍ مُبينٍ﴾ فُسِّر الكتاب هنا بعلم الله المحيط بجميع الأشياء إحاطة الكتاب بما فيه من الكلمات، كما فسِّر الكتاب باللوح المحفوظ الذي يوصف بأنه مستودع لما كان ويكون مما يعلمه الله وقدّر أن يعمله.

﴿وَهُوَ الّذي يَتَوَفَّاكُم بِاللّيْلِ﴾ التوفي: أخذ الشيء وقبضه بتمامه وأطلق التوفي على الموت لأن الأرواح تُقْبَضُ وتُؤْخَذُ أخذاً تاماً حتى لا يبقى لها تصرف في الجسد. وهنا في قوله ﴿يتوفاكم بالليل﴾ أطلق على النوم في الليل على سبيل المجاز والاستعارة لأن النوم شبيه بالموت لما بينهما من المشاركة من زوال بعض الحواس مؤقتاً كالبصر والانتباه والإدراك.

فهناك وفاتان: وفاة كبرى وتكون بالموت، ووفاة صغرى وتكون بالنوم، وقد

---

(١) أخرجه مسلم.
(٢) الكاهن هنا: هو الذي كان يدّعي علم الغيب عند العرب وليس هو الكاهن المعروف عند المسيحيين.
(٣) أخرجه الإمام أحمد.

صوّر القرآن تلك الحالتين بقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ ويعلم ما كسبتم وما عملتم في النهار من خير أو شر ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُم فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسمًّى﴾ ثم إنه بعد توفيكم بالنوم في الليل يوقظكم منه في النهار لأجل أن يقضي كل فرد أجله المعيّن في علم الله من حياة ورزق وعمل ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُم﴾ ثم إلى الله مرجعكم بعد الموت ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ﴾ ثم يخبركم بما كنتم تعملون في دنياكم من خير أو شر ويجازيكم عليها.

﴿وَهُوَ القَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وهو الله سبحانه العالي على الخلق بقدرته والغالب المتصرف في أمورهم كيف يشاء: إحياء وإماتة، ورزقاً، وغنى وفقراً، وعافية ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً﴾ والحفظة هم ملائكة جعلهم الله حافظين للناس من الآفات ويسجلون ما يعمله الناس من خير أو شر ﴿حَتَّى إذا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي حتى إذا جاء الوقت الذي ينتهي فيه أجل الإنسان توفته الملائكة المُرْسَلُون لقبض الأرواح، وهؤلاء الملائكة المرسَلون هم أعوان ملك الموت، فقد ثبت أن لملك الموت أعواناً من الملائكة يوكل إليهم قبض روح أي عبد جاء أجله ﴿وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ﴾ وهم لا يقصّرون ولا يتوانون في تأدية أعمالهم.

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الحَقِّ﴾ ثم يبعث الله هؤلاء الأموات يوم القيامة أحياء، ويردّون إلى الله خالقهم ومالكهم الحق أي العادل الذي لا يحكم إلا بالحق ﴿ألا لَهُ الحُكْمُ﴾ ألا: أداة استفتاح المؤذنة بالتنبيه إلى أهمية الخبر، أي ألا لله سبحانه وحده الحكم النافذ في خلقه فيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ

الحَاسِبِينَ﴾ وهو سبحانه يحاسب العباد كلهم في أسرع زمن وأقصره لا يشغله حساب أحد عن حساب غيره لأنه سبحانه لا يشغله شأن عن شأن ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر من الفكر والرويّة والتدبّر.

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

شرح المفردات

ظلمات البر والبحر: شدائدهما.

تضرّعاً: تذلّلاً وخضوعاً لله.

كرب: الغم الشديد الذي يأخذ بالنفس.

يَلْبِسكم شيعاً: يجعلكم فرقاً مختلفة الأهواء.

يُذيق بعضكم بأس بعض: ينكّل كل فريق بالآخر.

بوكيل: بحفيظ.

لكل نبأ مستقرّ: لكل خبر يخبر الله به وقت ومكان يقع فيه.

بيان قدرة الله وفضله على عباده

ثم ينتقل القرآن إلى تذكير المشركين بفضل الله عليهم عندما يلجأون إليه وحده في كشف الضرّ عنهم:

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُم مِنْ ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ﴾ قل يا محمد للمشركين موبخاً إياهم: من الذي ينجيكم من شدائد البر والبحر عندما تغشاكم بأهوالهما المرعبة إنكم في تلك الحالة تلجأون إلى الله وحده ﴿تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً﴾ تدعونه بضراعة أي بخضوع وذلّ كما تدعونه بالسرّ والخفاء ﴿لَئِنْ[1] أنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي نقسم يا رب لئن أنقذتنا من هذه الأخطار لنكونن من المقرّين بفضلك القائمين بشكرك.

﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أنْتُم تُشْرِكُونَ﴾ قل لهم يا محمد: الله وحده هو الذي ينقذكم من هذه الأهوال ومن كل شدة أخرى ثم أنتم بعد النجاة منها تشركون مع الله آلهة أخرى في العبادة وأنتم تعلمون أنها لا تدفع شراً ولا تجلب نفعاً.

نعود إلى قول الله تعالى: ﴿ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ﴾ والمراد بهما شدائدهما الهائلة التي تبطل الحواس وتُدهش العقول وتثير المخاوف في النفوس، والعرب تقول يوم مظلم إذا كان شديداً. فظلمات البر تظهر في ظلمة الليل وظلمة السحاب والخوف الشديد من الأعداء. أما ظلمات البحر فهي اجتماع ظلمة الليل مع ظلمة السحاب إضافة إلى الرياح العاصفة والأمواج الهائلة التي يترتب عليها الخطر على المراكب والسفن. ففي تلك الأحوال الرهيبة لا يلجأ الإنسان إلا إلى الله وحده ويدعوه بأن ينجيه من تلك الأخطار. فالفطرة التي أودعها الله في الإنسان تلجىء إلى الله وحده عند اشتداد الكرب وتترك ما كانت تعبد من دون الله من أصنام وأشخاص ومظاهر طبيعية، وإذا كان الأمر كذلك وجب على الإنسان أن يتوجه إلى الله في الدعاء والعبادة في كل الأحوال ويترك ما كان يدعو من غير الله مما لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضراً.

---

(١) لئن: اللام لام القسم.

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُم عَذَاباً مِنْ فَوقِكُم أو مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قل يا محمد للمشركين على سبيل التهديد: الله سبحانه هو الذي يقدر على أن يبعث عليكم عذاباً يأتيكم من أعلاكم أو من أسفل منكم ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً﴾ واللبس: اختلاط الأمر حتى لا يعرف الجهة التي يريدها، ولذلك سميت استقامة الأمور نظاماً واختلال الأمور والفوضى لبساً. و(شيعا) جمع شيعة وهي الفرقة من الناس التي تجتمع على أمر ما من عقيدة أو مبدإ. والمعنى: هو الله القادر على أن يجعلكم فرقاً مختلطي الأهواء متفرّقي الآراء ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ البأس: هو الشدة والمكروه كما يطلق على الحرب والعذاب، أي يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل ﴿أنْظُر كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُم يَفْقَهُونَ﴾ انظر أيها العاقل كيف يبين الله ويوضح الدلائل والحجج لهؤلاء المكذبين رجاء أن يفهموا حقيقة الإيمان بالله ويكفوا عن كفرهم وضلالهم. وقد سئل رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقال: «أما إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد»[1]. هذه الآية ظهر تأويلها في زمن الحربين العالميتين وما بعدهما من حروب فقد أرسل الله على الأمم عذاباً من فوقها بما تقذفه المدافع وبما تلقيه الطائرات من قنابل وصواريخ على المدن، أما العذاب من تحت أرجلكم فيظهر في الألغام التي زرعها المحاربون في أراضيهم وفي أراضي أعدائهم وهي تفتك بمن يدوس عليها.

أما قوله تعالى: ﴿أو يَلْبِسَكُم شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ فهو ما ظهر في الحروب الأهلية عند كثير من الشعوب، والتي ذاق ويلاتها كافة طبقات الشعب.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحَقُّ﴾ وكذّب قومك يا محمد بالقرآن وهو الحق

---

(١) أخرجه أحمد والترمذي.

الذي لا ريب فيه ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ وقل لهم لست عليكم بحفيظ أجازيكم على أعمالكم ولم يوكَل أمركم إليّ.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ والنبأ هو الخبر العظيم الذي له أهمية. أي لكل خبر عظيم جاء في القرآن له وقت أو مكان يحصل فيه هذا الخبر ويتحقق ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وسوف تعلمون في المستقبل صدق هذه الأخبار عند وقوعها.

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

شرح المفردات

يخوضون في آياتنا: يندفعون في الاستهزاء والطعن في آيات القرآن.

فأعرِض عنهم: فلا تجالسهم واتركهم.

بعد الذكرى: بعد التذكر.

ولكن ذِكْرى: ولكن تذكير ووعظ.

وَذَرِ: واترك.

غَرَّتهم: خَـدَعَـتْـهُم.

تُبْسَـل نفس: تُسلم نفس إلى الهلاك أو تفتضح.

وليّ: ناصر.

وإن تعدل كل عدل: العدل: الفداء، وإن تفتد تلك النفس بكل فداء لا يُقبل منها.

حميم: ماء شديد الحرارة.

ترك مجالسة الذين يطعنون في دين الله

ولما كان بعض المشركين يطعنون في القرآن ويستهزئون به لذا أمر الله رسوله محمداً والمؤمنين بالإعراض عنهم وترك مجالستهم. فقد رُوي أن المشركين بمكة كانوا إذا سمعوا القرآن من أصحاب النبي ﷺ خاضوا فيه واستهزأوا، فقال المسلمون: لا تصلح لنا مجالستهم نخاف أن نخرج ـ حين نسمع قولهم ونجالسهم ـ فلا نُعيب عليهم: فأنزل الله هذه الآية:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الذين يَخُوضُونَ في آيَاتِنَا﴾ أي وإذا رأيت ـ أيها النبي ـ أو أيها المؤمن هؤلاء المشركين يخوضون في آيات القرآن عند استماعهم لها بالطعن والتكذيب والاستهزاء. والخوض: حقيقته المشي في الماء، ثم استُعير الخوض للكلام الذي فيه الكذب والباطل **﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُم حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾** أي فاترك مجالستهم وقت اشتغالهم بباطلهم حتى يدخلوا في حديث غيره، وفائدة الإعراض عنهم تكمن في قطع الجدال معهم. وإنما عبّر عن انتقالهم إلى حديث آخر بلفظ «الخوض» لأنهم لا يتحدثون إلا فيما لا جدوى له من أحوال الشرك بالله وأمور الجاهلية.

﴿وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيطَانُ﴾ إما: أصلها: «إن» الشرطية المدغمة في «ما»

أي وإن أنساك الشيطان ترْك مجالستهم ﴿فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي فلا تقعد بعد التذكر عن النهي عن مجالستهم مع هؤلاء القوم الظالمين.

أما مسألة النسيان من رسول الله فيرى بعض العلماء أن ما جاء في الآية إنما هو على سبيل الفرض لا الواقع إذ لم يقع منه نسيان لذلك، ولهذا استعملت «إن» الشرطية فهي لمجرد الفرض لما ليس له تحقق الوقوع.

ويرى آخرون على جواز النسيان من النبي في الأفعال واستحالة النسيان منه في الأقوال التي عليه تبليغها. وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ قوله: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون فإذا نسيت فذكّروني»[١]. أما النسيان من جهة المؤمنين فقد روي عن النبي ﷺ قوله: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرِهوا عليه»[٢] أي هذه الأمور لا يؤاخذ الله عليها المؤمن.

﴿وَمَا عَلَى الَّذِين يَتَّقُون مِنْ حِسَابِهِم مِنْ شَيءٍ﴾ أي ما على المؤمنين الذين يتقون ربهم أن يحاسبوا هؤلاء الخائضين في آيات الله بالطعن والاستهزاء ولا أن يمنعوهم من ذلك ولا يلحق المؤمنين إثم من أفعال هؤلاء ﴿وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُم يَتَّقُونَ﴾ ولكن على المؤمنين أن يعظوهم لعلّهم يجتنبون ما هم عليه من القبائح ويتقوا الله في أقوالهم وأفعالهم.

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُم لَعِباً وَلَهْواً﴾ واترك ـ يا محمد ـ المشركين الذين جعلوا دينهم لعباً ولهواً وأمثال هؤلاء كل من يعمل على شاكلتهم من أهل

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه ابن ماجه.

الكتاب. أما اتخاذهم دينهم لعباً ولهواً فهو أن أعمال دينهم التي يعملونها لم تكن مزكّية للأنفس ولا مهذّبة للأخلاق ولا واقعة على الوجه الذي يرضي الله سبحانه فهي صرف للوقت فيما لا فائدة فيه على سبيل اللهو واللعب وأكثر ما يظهر ذلك في مواسم الأعياد الدينية وما يشوبها من مآثم ﴿وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي خدعتهم الحياة الدنيا وظنّوا أن لا حياة بعدها وأن نعيمها دائم لهم ﴿وَذَكِّر بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ﴾ الضمير في (به) راجع للقرآن، أي ذكّر بالقرآن وقم بالوعظ بما جاء فيه من الهدى، و(تبسل): لها عدة معانٍ منها: تُهلك، أي مخافة نفس أن تُسْلَمَ للهلاك مما عملته من الكفر والمعاصي. وقيل: تبسل بمعنى تُرتهن، أي تؤخذ بعملها إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ. وقيل الإبسال بمعنى الحبس، أي تُحبس في جهنم بما عملت من ذنوب ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ ولا شَفِيعٌ﴾ والوليّ: هو الناصر، أي ليس لتلك النفس الآثمة من غير الله ناصر ينصرها، ولا شفيع يشفع لها في الآخرة ويمنع عنها العذاب ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لا يُؤْخَذْ مِنْهَا﴾ العدل: هو الفداء، أي وإن تقدّم تلك النفس كل فداء تفتدي به من العذاب لا يُقبل منها ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا﴾ أولئك الذين أُسْلِمُوا للهلاك أو يُجزون بسبب أعمالهم القبيحة ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ والحميم: ماء بالغ نهاية الحرارة إذا شربوه يقطع أمعاءهم، وخُصَّ الشراب بالحميم من سائر أنواع العذاب الأخرى لأنهم يعطشون فلا يشربون إلا ما يزيدهم حرارة على حرارة العطش ﴿وَعَذَابٌ أليم﴾ ولهم أيضاً مع الشراب الحميم من الله العذاب الأليم بنار تشتعل بأبدانهم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرونَ﴾ بسبب استمرارهم وإصرارهم على الكفر.

﴿ قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾.

شرح المفردات

ونُردّ على أعقابنا: ونرجع إلى الوراء وذلك بالعودة إلى الشرك بالله.

استهوته الشياطين: أغوته وأضلته.

لِنُسْلِمَ: لنخضع وننقاد.

إليه تُحشرون: تجمعون إليه يوم القيامة.

الصُّور: بوق ينفخ فيه الملك إسرافيل يوم القيامة.

الغيب: ما يغيب عن الرؤية.

الشهادة: ما يُشاهد بالنظر.

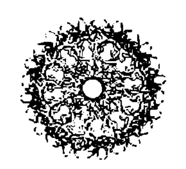
التوجه إلى الله وحده بالعبادة

كان المشركون قد طلبوا من رسول الله أن يترك الدعوة إلى الدِّين الذي جاءهم به وهو عِبَادة الله وحده، كما طلبوا من المؤمنين أن يتركوا دين الإسلام ويعودوا إلى ما كانوا عليه من الشِّرْكِ بالله وعبادة الأصنام فنزلت الآية الكريمة:

﴿قُلْ أَنَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا ولا يَضُرُّنَا﴾ أي قل يا محمد للمشركين الذين يدعونك والمؤمنين إلى الشِّرْكِ بالله وعبادة الأصنام: أنعبد من غير الله ما لا يقدر على نفعنا إن عبدناه، ولا يقدر على ضرّنا إن تركنا عبادته؟ والاستفهام هنا للتوبيخ ﴿وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ والأعقاب: جمع عقب وهي مؤخر القدم، ويُقال: رجع على عقبه وعلى عقبيه بمعنى رجع إلى المكان الذي جاء منه، ثم استعمل ذلك المعنى للحالة الذميمة التي فارقها صاحبها ثم عاد إليها، والمقصود هنا أن الذي يعود إلى الشرك بعد الإيمان يكون قد عاد إلى الصفة الذميمة بعد أن كان قد تركها، والمعنى: كيف يليق بنا أن نعبد غير الله، وأن نرتدّ بإغوائكم أيها المشركون إلى ما كنا عليه من الشرك بعد أن هدانا الله إلى توحيده وترك عبادة الأصنام، وعند رجوعنا إلى الشرك يكون حالنا ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ أي كالذي اذهبت الشياطين بهواه وعقله وأضلته عن الطريق السليم فأصبح حيران تائهاً في الأرض بعد أن كان عاقلاً عارفاً بمسالكها ﴿لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ وكان لهذا الذي أضلته الشياطين رفقاء صالحون يقولون له: ائتنا فكن معنا على الدين الحق. هذا مَثَلٌ ضربه الله لمن يدعو إلى عبادة غير الله ولمن يدعو إلى عبادة الله وحده فمثلهما كمثل رجل ضلّ عن الطريق المستقيم فجعل أصحابه المهتدون يدعونه إليهم وجعل أهل الضلال يدعونه لينضم إليهم فبقي حيران لا يدري أين يذهب، فإن استجاب لأهل الضلال هلك وإن استجاب لأصحابه المهتدين نجا وسَلِمَ ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ قل يا محمد للمضلّين: إن هُدى الله ـ وهو الإسلام ـ هو الهادي إلى الطريق المستقيم ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وأمرنا الله أن نخضع له ونخصّه وحده بالعبادة دون سواه لأنه رب كل شيء أي مالكه وله الربوبية على جميع الخلق لا شريك له.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَاتَّقُوهُ﴾ أي وأمرنا الله أيضاً أن نُقيم الصلاة ونؤدّيها في أوقاتها مستوفية لأركانها وأن نتقي ما يغضبه فنطيعه ولا نعصيه ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ وهو الله سبحانه الذي تُجمعون إليه يوم القيامة للحساب والمجازاة على أعمالكم.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ وهو الله سبحانه الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما خلْقاً مشتملاً على الحق والصواب ولم يخلقهما عبثاً وباطلاً ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الحَقُّ﴾ أي قوله سبحانه هو الحق والصواب يوم يقول للشيء: كن فيكون فوراً، وهو وقت أن خلق الله السماوات والأرض، ووقت القيامة والبعث وقيام الناس أحياء للحساب والمجازاة على أعمالهم ﴿وَلَهُ المُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ في الصُّورِ﴾ وله وحده سبحانه التصرف المطلق يوم القيامة حين ينفخ الملك إسرافيل في الصُّور، وهو قرن ينفخ فيه، إيذاناً ببعث الأموات أحياء للوقوف أمام ربهم للحساب والمجازاة على الأعمال، ففريق في الجنة وفريق في النار ﴿عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ﴾ وهو الله سبحانه يعلم ما يغيب عن أنظار العباد ويعلم ما يشاهدونه فلا يخفى عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ﴾ وهو سبحانه ذو الحكمة الذي يضع كل شيء في موضعه بحكمة ودراية وهو الخبير بأحوال الخلق.



﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

شرح المفردات

مبين: ظاهر واضح.

ملكوت: المُلك العظيم مصدر زيدت فيه الواو والتاء للمبالغة.

من الموقنين: من المؤمنين إيماناً راسخاً.

جنّ عليه الليل: ستره الليل بظلامه.

أفل: غرب وغاب.

بازغاً: مبتدئاً في الطلوع والظهور.

وجّهت وجهي: قصدت بعبادتي.

فطر: خلق وأنشأ على غير مثال سابق.

منهج إبراهيم في الدعوة إلى عبادة اللّه وحده

وبعد أن أوضح القرآن فساد الإشراك بالله وبطلانه، وشمول قدرة الله سبحانه لهذا الكون، انتقل بعد ذلك إلى ذِكْرِ المحاورة التي حصلت بين نبيّ الله إبراهيم عليه السلام وبين قومه في بطلان ما كانوا يعبدون من دون الله من أصنام ومظاهر طبيعية. وإبراهيم عليه السلام كانت له مكانة عالية عند العرب في الجاهلية وكانوا يدّعون أنهم على ملّته، وفي هذه المحاورة الآتية موعظة تشتمل على سُبُل الإقناع لترك عبادة غير الله والرجوع إلى الدين الحق، قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْراهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً﴾ آزر: كما ذكر العلماء المسلمون هو لقب له مثل يعقوب الملقّب بإسرائيل. واسم أبي إبراهيم (تارح). وقيل (آزر) اسم الصنم الذي كان يعبده أبو إبراهيم فلقّب به.

والمعنى: واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين حين قال إبراهيم لأبيه آزر منكراً عليه عبادة غير الله: أتتخذ أنت وقومك الأصنام آلهة تعبدونها من دون الله؟

والأصنام: جمع صنم وهو على شكل إنسان أو حيوان ويكون من خشب أو حجر أو معدن ﴿إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ أي إني أراك وقومك في ضلال ظاهر واضح. ووصف الضلال بـ ﴿مبين﴾ أي ظاهر يدل على فساد عقولهم حيث لم يلاحظوا ضلالهم مع أنه مشاهد مرئيّ، وفي قول إبراهيم هذا تبكيت وتقريع لأبيه ولقومه على مسلكهم الذي يتنافى مع العقل، فهذه الأصنام من صنع أيديهم لا تنفع ولا تضرّ فكيف يتوجهون إليها بالعبادة؟ ثم بيّن القرآن منهج إبراهيم عليه السلام في الدلالة على وجود الله ووحدانيته:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ﴾ يقول الله تعالى:

وكما عرّفنا إبراهيم ضلال قومه، والبصيرة في الدِّين الحق، نريه مُلكنا العظيم للسماوات والأرض وما فيهما من مخلوقاتنا ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ليكون من جملة الراسخين في الإيمان الذين لا يتطرق الشك إلى قلوبهم.

ثم شرع إبراهيم في إرشاد قومه إلى عبادة الله وحده بالبراهين الآتية، قال تعالى:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أي فلما ستر الليل إبراهيم وغشيه بظلمته رأى كوكباً ظاهراً في السماء، فقال وحوله فئة من قومه: هذا ربي أي خالقي ومدبّر أمري فهو مستحق لعبادتي، قال ذلك على سبيل الفرض مجاراة لقومه ليستأنسوا بقوله وليستدرجهم فيما بعد إلى سماع الحجة الدامغة على ربوبية الله وحده لهذا الكون، وبطلان عبادة الكوكب الذي يعبده قومه، وكي لا ينفروا من وعظه من أول وهلة، وهكذا تظاهر بموافقته لهم لينال ثقتهم ولينتقل بعد ذلك إلى بيان مواضع الخطأ والضلال في معتقداتهم.

ويقول بعض المفسرين: إن قول إبراهيم ﴿هذا ربي﴾ هو على طريق الاستفهام الإنكاري، أي أهذا ربي كما تزعمون؟ وليس القول على الحقيقة ألبتة.

﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ أي فلما غاب هذا الكوكب وغرب قال إبراهيم: لا أحب عبادة الآلهة الزائلين، لأن شأن الإله أن يكون دائم المراقبة لعباده لتدبير شؤونهم، فلما احتجب كان محجوباً عن الاطلاع على الناس.

ثم ينتقل إبراهيم خطوة أخرى:

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أي فلما رأى القمر طالعاً من وراء الأفق قال هذا ربي على طريق حكاية ما كان يقول قومه تمهيداً لإبطال عبادته ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ أي

فلما غاب القمر قال إبراهيم: لئن لم يرشدني ربي إلى الحق ويُثَبِّتني عليه لأكونن من جملة الذين لم يهتدوا إلى الحق.

فإبراهيم في هذا الاعتراف يرمي إلى هدفين، **الأول**: نقض عبادة القمر وبيان أن من اتخذ القمر إلّهاً فهو ضال. **والثاني**: إن هناك معبوداً آخر بِحقٍّ هو الله وحده الذي يهدي الناس ويحول دون تسرّب الشك والحيرة إلى قلوبهم.

ثم انتقل إبراهيم إلى استدلال آخر على بطلان معتقدات قومه:

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ أي فحين أبصر إبراهيم الشمس قد بدأت في الشروق قال مشيراً إليها: هذا هو ربي إنه أكبر من الكوكب والقمر، فهو أجدر منهما بالربوبية، قال لهم ذلك استدراجاً لهم حتى يجارونه في الاستماع إليه بعد تعريضه السابق بالكوكب والقمر وبطلان ألوهيتهما ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ: يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ أي فلما غابت الشمس أعلن إبراهيم حينئذ لقومه براءته من جميع معبوداتهم الباطلة المتغيرة التي كانوا يعبدونها من دون الله، أو يشركونها مع الله في العبادة.

وبعد أن نقض إبراهيم ما كانوا يعبدون من دون الله أعلن إيمانه بربه فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾ أي إني جعلت قصدي واتجاهي في العبادة لله الذي أوجد السماوات والأرض وأنشأها على غير مثال سابق ﴿حَنِيفاً﴾ أي مائلاً عن الاعتقادات الباطلة إلى عقيدة وحدانية الله ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولستُ من الذين أشركوا مع الله في العبادة بعض مخلوقاته.

إن المتمعن في الآيات السابقة يرى حقيقة علمية ذكرها القرآن عندما حكى عن المعبودات التي كانت في عصر نشأة إبراهيم في العراق وهي الكواكب والقمر

والشمس، وهي معبودات قديمة شهد العلم بوجودها بعد أن سبر تاريخ الأمم الماضية بواسطة الحفريات والآثار التي حصل عليها.

ففي بلدة أور في العراق بلد إبراهيم شاعت عبادة القمر وكان يُطلق عليه اسم (نانار) كما عُبدت الشمس وأطلق عليها اسم (شماس) كما شاعت عبادة الكواكب ومن أشهرها كوكب الزهرة الذي أطلق عليه اسم (عشتار) وكوكب المريخ واسمه (مردوخ)[١] .

وهذه الحقائق التي أعلنها القرآن عن عصر إبراهيم تشهد بأنه وحي إلٓهي ليس من تأليف محمد كما يدّعي المغرضون، فمحمد لم يسافر إلى العراق ولم ينقّب في الآثار ليحصل على هذه المعلومات والحقائق التي عُرفت في العصر الحاضر. هذا مع العلم أن التوراة لم تشر إليها لا من قريب ولا من بعيد.



(١) إبراهيم أبو الأنبياء ـ للأستاذ عباس محمود العقاد. وقصة الحضارة ـ ول ديورانت ـ جـ ٢ ص ٢١٤.

﴿ وَحَاجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾.

شرح المفردات

وحاجّه قومه: خاصموه في توحيد الله وجادلوه.

وَسِعَ ربي كل شيء علماً: أحاط علمه بكل شيء.

أفلا تتذكّرون: أفلا تعتبرون وتتعظون.

سُلطاناً: حجة وبرهاناً.

يَلبِسُوا: يخلطوا.

حجّتنا آتيناها إبراهيم: أدِلّتنا التي أرشدنا إبراهيم إليها.

حجة إبراهيم في بطلان الإشراك بالله

وبعد أن أقام إبراهيم الحجة على قومه ببطلان عبادة غير الله من أصنام ومظاهر طبيعية لم يجد قومه وسيلة للرد عليه إلا مجادلته بالباطل:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾ والمحاجّة: هي المجادلة والمغالبة في إقامة الحجة.

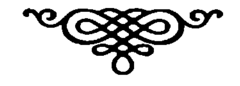
وتطلق الحجة على كل ما يدلي به أحد الخصمين في إثبات دعواه أو ردّ دعوة خصمه. فإبراهيم عليه السلام جادله قومه بعدما تقدّم من أمره معهم وخاصموه في قضية وحدانية الله وعبادته وحده ﴿قَالَ أَتُحَاجُونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ قال إبراهيم مُنكراً عليهم: أتجادلونني في وحدانية الله وعبادته وحده وقد أرشدني الله إلى طريق الحق والصواب ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ ولا أخشى أن ينالني سوء من آلهتكم التي خوفتموني بها فإنها لا تنفع ولا تضر ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي لكن إن شاء ربي وقوع مكروه بي فإنه يقع بمشيئته وحده لا بإرادة آلهتكم ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أحاط علم ربي بكل شيء ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أفلا تعتبرون ما أنتم عليه من خطأ وضلال وأن آلهتكم عاجزة عن إلحاق الضرر بي؟

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ وكيف أخشى آلهتكم التي أشركتموها مع الله في العبادة ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا﴾ أي ولا تخافون الله الذي خلقكم ورزقكم فتشركون به آلهة لم ينزّل سبحانه عليكم من السماء حجة وبرهاناً على استحقاق ألوهيتها وعبادتها ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فأيُّ من الفريقين أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة؟ نحن الذين نعبد الله وحده أم أنتم الذين تعبدون آلهة كثيرة لا تنفع ولا تضرّ، إن كنتم من أهل العلم والبصيرة فأخبِروني بذلك. وهذا من روائع الحوار العقلاني الذي سلكه القرآن مع مخالفيه.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي إن الذين صدّقوا بوجود الله وأنه واحد لا شريك له ولم يخلطوا عبادتهم وتصديقهم لله سبحانه بِشِرْكٍ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ أي لهم الأمن من العذاب في الآخرة ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾

وهم السالكون طريق الرشاد والنجاة دون ما سواهم. والظلم هنا كما قال المفسرون هو الإشراك بالله بناء على قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣] ولـمـا جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه لما نزلت الآية ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إيمانهم بِظُلْمٍ﴾ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله فقالوا: يا رسول الله وأيُّنا لم يظلم نفسه، فقال النبي ﷺ: ليس بذلك ألم تسمعوا قول لقمان لابنه: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ تلك حجّتنا: هي إشارة إلى تلك الدلائل والبراهين على وحدانية الله واستحقاقه للعبادة وحده التي أرشد الله إبراهيم إليها محاولاً إقناع قومه بها ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ درجات: جمع درجة، وهي التي تصلح للصعود أو النزول ثم استعملت في ارتفاع قِيَمِ الناس الاجتماعية ومراتبهم المعنوية في الخير والعلم والفضل وهي المقصودة هنا. فالله سبحانه يرفع بالعلم والفهم والعقل والفضيلة والحكمة من شاء من عباده على غيرهم ممن لا يتمتعون بتلك المزايا ويُعلي قدرهم في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ إن ربك يا محمد حكيم في جميع أفعاله، عليم بجميع أحوال خلقه لا يفعل شيئاً إلا بحكمة وعلم.



﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

شرح المفردات

وهبنا: أعْطَيْنَا.

واجتبيناهم: اصطفيناهم، واخترناهم.

لحبط: لبطل.

الحكم: القضاء بين الناس بالحق، أو الحكمة.

اقتده: اقتدِ، والهاء للسكت، أي تأسَّ به.

ذرية إبراهيم من الأنبياء ومكانتهم عند الله

وبعد أن أظهر إبراهيم عليه السلام دينه وغلب خصومه بالحجج القاطعة والبراهين القوية على وحدانية الله وبُطلان عبادة الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله

بيّن القرآن بعد ذلك ما خصّ الله إبراهيم به من ذرية صالحة اصطفاها بالنبوّة، قال الله تعالى:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إسحَاق وَيَعْقُوبَ﴾ أي أنعم الله على إبراهيم بولد من صلبه اسمه اسحاق. ويعقوب هو ابن إسحاق أي حفيده وهو ولد الولد ﴿كُلاًّ هَدَيْنَا﴾ أي هدى الله كلاًّ منهما إلى سبيل الرشاد ووفّقهما إلى طريق الحق والصواب ﴿وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي ومن قبل إبراهيم هَدَى اللَّهُ نوحاً إلى التوحيد والدعوة إليه.

وفي ذكر نوح عليه السلام في سياق تعداد النعم على إبراهيم، وإبراهيم من ذرية نوح، إشارة إلى أن هداية الآباء نعمة على الأبناء، كما أن هداية الأبناء نعمة على الآباء وشرف لهم.

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ أي ومن ذرّية نوح هؤلاء الأنبياء الوارد ذكرهم ﴿وكذلك نجزي المُحْسِنِينَ﴾ أي وكما جزى الله هؤلاء الأنبياء وأنعم عليهم بأنواع الكرامات كذلك يجزي الله كل محسن عامل للحسنات تارك للسيئات بأنواع الكرامات.

﴿وزَكَرِيَّا ويَحْيَى وَعيسَى وإلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحينَ﴾ أي وَهَدَى الله هؤلاء الأنبياء إلى الدِّينِ الحق وجعل كلاًّ منهم من عباده الصالحين الذين صَلُحَ عملهم فأطاعوا الله فيما أمرهم به ﴿وَإِسْمَاعِيلَ والْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى العَالَمِينَ﴾ أي وفضّل الله كل واحد من هؤلاء الأنبياء على سائر عالم زمانهم ﴿وَمِنْ آبَائِهِم وَذُرِّيَّاتِهِم وَإِخْوَانِهِم﴾ وهدى الله أيضاً من آباء الأنبياء المذكورين ومن ذرياتهم وإخوانهم آخرين لم يَذْكُرِ الله أسماءهم ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُم﴾ واختارهم الله لدينه وإبلاغ رسالته إلى خلقه ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم﴾ وسدّد الله خطاهم فأرشدهم إلى الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه وهو دين الإسلام، الذي يدعو

إلى توحيد الله والخضوع والانقياد له فيما أمر به من الأحكام والعبادات ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أخبر القرآن عن الهدى الذي هدى الله به أنبياءه بأنه هُدى الله لتشريف أمره وبيان بُعْدِهِ عن الخطأ والضلال، وأنه سبحانه يهدي إلى دينه القويم من يشاء من عباده، وفي هذا حث للنفوس على طلب هُدى الله وابتغاء رضوانه حتى تنال شرف الهداية من الله سبحانه ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي لو حصل من عباده الصالحين المذكورين إشراك بالله على سبيل الفرض ـ وحاشا لله أن يصدر منهم ذلك ـ لبطل ثواب ما كانوا يعملون من أعمال صالحة.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ أي أولئك الأنبياء الذين سبق ذكرهم أنزل الله على بعضهم الكتب الإلهية التي فيها الهدى لأقوامهم، ومن هذه الكتب التي ورد ذكرها في القرآن: صحف إبراهيم عليه السلام، والزبور الذي أعطاه الله لداود عليه السلام، والتوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام، والقرآن الذي أنزله الله على محمد ﷺ.

﴿والحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ كما أن الله جعل لأولئك الأنبياء القدرة على الفصل بين الناس بالحق، كما فُسِّر الحُكم بمعنى الحكمة، وأيضاً خصّ الله أولئك الأنبياء بالوحي والرسالة منه إلى خلقه ﴿فَإِن يَكْفُر بِهَا هَٰؤُلَاءِ﴾ المراد بـ (هؤلاء) أهل مكة وسائر من كفر بعد تبلّغهم رسالة الله، أي فمن يكفر بمن وَرَدَ ذِكْرُهم من الأنبياء وما جاءوا به من الهدى من عند الله ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بكافِرِينَ﴾ أي وفّق الله للإيمان بها ومراعاتها والقيام بحقها من لا يجحدون بها بل يُؤمنون بها ويصدّقونها ويعملون بموجبها.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِين هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾ أي هؤلاء الأنبياء الذين

وفّقهم الله لدينه الحق والعمل بشريعته واصطفاهم على خلقه فاقتد بهم بطريقتهم في الإيمان بالله وتوحيده، وبما كانوا عليه من أخلاق حميدة، وأفعال مرضية، وصفات كريمة ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ وقل يا محمد لقومك لا أطلب منكم أجراً ومكافأة على تبليغكم رسالة الله، وهنا توجيه للدعاة والوعاظ بأن لا يأخذوا أجرهم على ما يقومون به من دعوة إلى الله ليكون لدعوتهم التأثير على القلوب وتحظى بالقبول من الله ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ أي ما القرآن إلاّ عظة وإرشاد لكافة الخلق إلى الطريق السويّ الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة، وهذا أحد النصوص القرآنية التي تدل على عموم رسالة محمد لكافة البشر.

ثم إن القرآن ذكر في هذه السورة ثمانية عشر نبياً دون ترتيب رسالاتهم لا بحسَبِ الزمان ولا بحسب الفضل، ولكن هناك حكمة كما ذكر بعض المفسرين أوجبت هذا الترتيب الذي أورده القرآن الكريم وهي أن الله قسم الأنبياء إلى طوائف وخص كل طائفة منهم بنوع من الكرامة والفضل فذكر أولاً نوحاً وإبراهيم واسحاق ويعقوب باعتبار أنهم أصول الأنبياء وإليهم ترجع أنسابهم جميعاً. ثم من المراتب المعتبرة بعد النبوة الملك والقدرة والسلطان، وقد خص الله داود وسليمان من ذلك حظاً وافراً.

ومن المراتب التي تمايزوا بها: الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد وقد خص الله بهذا أيوب عليه السلام ويوسف عليه السلام. ومن المراتب المعتبرة في تفضيل الأنبياء: كثرة المعجزات وقد خص الله تعالى بذلك موسى وهارون من ذلك بالحظ الوافر.

ومن المراتب المعتبرة الزهد في الدنيا والإعراض عنها، وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس عليهم السلام. ثم ذكر الله بعد ذلك من لم يبق لهم أتباع ولا شريعة وهم إسماعيل واليسع ويونس ولوط عليهم السلام.

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

شرح المفردات

وما قَدَروا اللّه حقَّ قدره: وما عظّموه حقَّ تعظيمه.

قراطيس: أوراق مكتوبة مفرّقة ليتمكنوا من إبداء ما يريدون إبداءه منها.

ذرهم: اتركهم.

خوضهم: الخوض من الكلام ما فيه الكذب والباطل.

أم القرى: مكة والمراد أهلها.

إنكار نزول الوحي على محمد ﷺ

ثم تأتي الآية الكريمة ردًّا على المنكرين بأن محمداً رسول الله وأن الوحي الإلهي لم يكن ينزل عليه من السماء. والمنكرون بأن محمداً رسول الله هم كثيرون ظهروا في العصور السابقة كما ظهروا في العصر الحديث. ومن الذين أنكروا بأن محمداً رسول الله في زمن بدء الإسلام: المشركون العرب واليهود. يقول الله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عظّموا الله حق تعظيمه وما عرفوه حق معرفته في اللطف بعباده والرحمة بهم، إذ أنكروا بعثة الرسل وإنزال الكتب الإلهية

عليهم ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيءٍ﴾ أي قالوا لم يُنَزِّل الله على بشر كتاباً ولا وحياً من السماء. ولكن من القائل بذلك؟ اختلف المفسرون فقال بعضهم: إنهم كفار قريش وقال البعض هم اليهود، ولكن نص القرآن ينطبق على المشركين العرب فهم ينكرون بأن محمداً رسول الله ويقولون: ما أنزل الله وحياً على بشر بينما اليهود كانوا يعترفون بأن الله كان ينزل الوحي على رسله ومنهم موسى ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكِتَابَ الَّذي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ قل يا محمد لكفار قريش على سبيل التبكيت لهم: من الذي أنزل التوراة على موسى وهم يعترفون بذلك فذكّرهم بأمر لا يستطيعون إنكاره وألزمهم به لِمَا كان شائعاً في بلاد العرب فقد كانوا مختلطين باليهود وسمعوا منهم ظهور المعجزات على يد موسى ﴿نُوراً وَهُدىً للنّاسِ﴾ وهذه التوراة هي ضياء من ظلمة الضلال وإرشاد للناس لما فيه الخير لهم وذلك قبل أن يدخل عليها التحريف والتبديل ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَها وتُخْفُونَ كَثيراً﴾ إذا أمعنا النظر في هذا النص نرى أنه خطاب لليهود ولكن بما أننا اخترنا مذهب من يقول في هذه الآية إنها جاءت في صدد مخاطبة كفار قريش فإن هذا الإشكال يزول إذا علمنا أن هناك قراءة للآية بلفظ الغيبة أي بذكر الياء بدل التاء في تجعلونه، وتبدونها وتخفون، فيصبح النص القرآني على تلك القراءة ﴿يَجْعَلونَهُ قَرَاطِيسَ يُبدونَها ويُخْفُونَ كَثيراً﴾ فالكلام هنا عن اليهود، فاليهود جعلوا كتاب التوراة في أوراق مفرقة ليسهل عليهم إظهار ما يريدون إطلاع الناس عليه، وإخفاء الكثير من أحكام التوراة مما لا يحبون أن يعرفها الناس، ومما كانوا يكتمونه عن الناس ما جاء في التوراة من أمر محمد ﷺ والبشارة بنبوته ﴿وعُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أنتُمْ ولا آباؤُكُمْ﴾ وعلِّمتم يا معشر العرب ما لم تعلموه أنتم ولا آباؤكم، والذي علموه هو ما أخبرهم به رسول الله ﷺ من الأمور الدينية التي أوحى الله إليه بها ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ قل يا محمد: الله نزّله، وهذا جواب على السؤال

المطروح في صدر الآية: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ﴾ ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي ثم اتركهم فيما يخوضون فيه من الباطل يعبثون ويلعبون.

يرى بعض المفسرين أنه لما كان كفار قريش واليهود يشتركون في إنكار نبوة محمد لم يبعد أن يكون الكلام الوارد في الآية بعضه موجّه إلى كفار قريش وهو ما ورد في صدر الآية والبعض الآخر خطاب لليهود، وهو ما تدلّ عليه القراءة للأفعال بلفظ التاء بدل الياء في شأن اليهود ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وتُخْفُونَ كثيراً﴾.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الذي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ وهذا القرآن كتاب أنزله الله من عنده على محمد وهو مبارك أي كثير البركة والخير، دائم النفع مصدّق لما أنزله الله من الكتب على الأنبياء من قبله كالتوارة والإنجيل إذ إنه يوافقها في الدعوة إلى عبادة الله وحده وفيما جاءت به من فضائل الأعمال، وإن خالفها في بعض الأحكام، ويصحح ما طرأ عليها من تحريف وتبديل ﴿وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ والإنذار هو التحذير والتخويف من عصيان الله. وأم القرى هي مكة سميت بذلك لكونها أعظم القرى شأناً ولأن فيها أول بيت وضع لعبادة الله وحده ولكونها قبلة المسلمين في الصلاة، ومحل حجهم، والمراد بإنذارها إنذار أهلها وإنذار جميع البلاد حولها ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِم يُحَافِظُونَ﴾ أي كل من آمن بالله واليوم الآخر يؤمن بهذا الكتاب المبارك وهو القرآن الذي أنزلناه إليك يا محمد، وإيمانهم هذا يحملهم على المحافظة على صلاتهم، وخصّ الله الصلاة بالذكر لأنها عماد الدين، والمحافظة على الصلاة هي المواظبة على أدائها في أوقاتها مستوفية لشروطها وأركانها مع الخشوع لله، والصلاة أشرف العبادات بعد الإيمان بالله.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

شرح المفردات

افترى: اختلق.

غمرات الموت: سكرات الموت وشدائده.

أَخْرِجوا أنفسكم: خلّصوها مما هي فيه من العذاب.

عذاب الهون: عذاب الخزي والذل.

خوّلناكم: أعطيناكم من متاع الدنيا.

وراء ظهوركم: أي في الدنيا.

تقطّع بينكم: تشتت جمعكم وانفصلت الروابط بينكم.

الوعيد لمن يدّعي النبوّة كذباً

وقد كان في عهد النبي ﷺ من ادعى النبوة كذباً وآخر ادّعى أنه قد جاء بمثل ما جاء به رسول الله من الوحي كمسيلمة وعبد الله بن سعد بن أبي سرح وغيرهما فنزلت

الآيات القرآنية الآتية وفيها الوعيد بالعذاب الشديد لهم يوم القيامة قال تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ استفهام معناه النفي، أي لا أحد أشد ظلماً ممن اختلق على الله كذباً كالذين قالوا ما أنزل الله وحياً على بشر، أو جعلوا لله شريكاً أو ولداً ﴿أو قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيءٌ﴾ أو قال بأن الله أوحى إليه وخصه بالنبوة مع أنه كاذب في دعواه لأن الله ما أوحى إليه شيئاً، وهذا الحكم يسري على كل من يدعي النبوة بعد نبوة محمد ﷺ لأنه لا نبي بعده ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ أو من ادّعى بأنه قادر على الإتيان بمثل ما أنزل الله على محمد من القرآن كما ادّعى النضر بن الحارث ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمونَ في غَمَرَاتِ المَوْتِ﴾ الخطاب لرسول الله ولكل من سمع هذا الخطاب. وجواب (لو) حذف للتهويل. وغمرات الموت: سكراته وشدائده، والمعنى: ولو ترى يا محمد حال أولئك الظالمين وهم في سكرات الموت وشدائده لرأيت أمراً عظيماً ﴿والملائِكَةُ باسِطُو أيْدِيهم﴾ بسط اليد: مدّها، وقد استعملت بمعنى الإيذاء المطلق، أي أن الملائكة يبسطون أيديهم لقبض أرواحهم بالعنف والضرب، وهذا ما ذكره القرآن في موضع آخر ﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧]. ثم تقول لهم الملائكة ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُم﴾ أي أخرجوا أنفسكم من هذه الشدائد وخلّصوها من هذه الآلام إن استطعتم ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الهُونِ﴾ أي في وقت الإماتة، والوقت الممتد بعده إلى يوم القيامة يكون جزاؤكم عذاب الخزي والذل ﴿بِمَا كُنْتُم تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الحَقِّ﴾ والقول على الله غير الحق يشمل كل نوع من الكفر أو ينسب إلى الله كل باطل ﴿وَكُنْتُم عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وكنتم تُعْرِضُون عن آيات القرآن والإيمان بها ولا تتعظون بها تكبّراً وجحوداً.

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمونا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُم أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يقول الله سبحانه:

ولقد جئتمونا أيها الناس للحساب يوم القيامة منفردين عن الأهل والأعوان كما أوجدناكم أوّلَ حياتكم الأولى عند خروجكم من بطون أمهاتكم حفاة عراة ﴿وَتَرَكْتُم مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ وتركتم وراءكم في الدنيا كل ما أعطيناكم إياه مما كنتم تغترون وتتباهون به من الأموال والأولاد والجاه، وهذا يدلّ على أن كل مال يكتسبه الإنسان ولا ينفقه في مصارف الخيرات فشأنه كشأن ما ذكرته الآية، أما إذا أنفق أمواله في الجهات التي أمر الله بها في وجوه الخير ومساعدة الفقراء والمحتاجين فإنه بذلك لا يكون قد ترك الأموال وراء ظهره ولكنه قدمها أمامه ثواباً عند الله كما جاء في القرآن ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].

ثم يقول الله لهؤلاء المشركين: ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُم شُفَعَاءَكُمُ﴾ أي ما نرى شفعاءكم من الأصنام الذين كنتم في الدنيا تزعمون أنهم يشفعون لكم عند ربكم يوم القيامة ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُم فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ الذين زعمتم أنهم ينصرونكم عند الله وأنهم شركاء لله في الربوبية فعبدتموهم من دون الله ﴿لَقَدْ تَقَطَّع بَيْنَكُم﴾ أي انقطع وتفرق ما كان بينكم وبينهم من الروابط والتواصل التي كانت في الدنيا ﴿وَضَلَّ عَنْكُم مَا كُنْتُم تَزْعُمُونَ﴾ وذهب أو غاب عنكم ما كنتم تزعمون في الدنيا من أن أصنامكم تشفع لكم، وما كنتم تدّعون من أنه لا بعث يوم القيامة ولا جزاء ولا حساب على الأعمال.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

شرح المفردات

فالق: الفلق، الشق، أي يشق الحبة اليابسة كالحنطة فيخرج منها النبات.

النّوى: ما في داخل الثمرة وهي البِزْرة.

تؤفكون: فكيف تُصرفون عن الإيمان بالله وعبادته.

فالق الإصباح: شاقٌّ ظلمة الصبح عن ضياء النهار.

سكناً: يُسكن فيه من تعب النهار.

حُسباناً: يُحسب بهما الأوقات.

فصّلنا الآيات: بيّنا الدلالات على قدرتنا.

فمستقر ومستودع: أي مكان استقرار الإنسان في الرحم وموضع استيداعه في القبر.

يفقهون: يفهمون.

طَلْعُها: أول ما يبدو من ثمر النخل كالكيزان.
قِنوان: جمع قِنو. أي عراجين وهي للتمر بمنزلة العنقود.
دانية: متدلية أو قريبة من يد المتناول.
وينعه: ونضجه.

من مظاهر القدرة الإلهية في الكون

ثم ينتقل بنا القرآن إلى بعض مظاهر القدرة الإلهية في هذا الكون فيلفت أنظارنا إلى بعض معالمه العجيبة وينقلنا من مشهدٍ إلى مشهد سواء ما كان في العالم العلوي من النجوم والكواكب أو ما كان في العالم السفلي مما تنبته الأرض من نبات وشجر لا يملك الإنسان عند تأملها واستجلاء أسرارها إلا أن يخرّ ساجداً لله معظّماً إياه على قدرته الباهرة، وحكمته البالغة، وفضله العظيم على الناس.

فها هو القرآن يقف بنا أمام نشأة الحياة في النبات:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ والنَّوَى﴾ فالق: أي شاقٌّ، فالله سبحانه يشقّ الحبَّ مثل القمح والفول والعدس فيخرج منه النبات الذي ينتج هذه الحبوب، كما يشق النوى وهي البذور التي في داخل الثمرة كالبلح والخوخ والمشمش وغيرها فتنبت الأشجار التي تُنتج هذه الثمرات.

لا يكفي أن يكون هناك تربة وماء وضوء لكي ينمو النبات ولكن قبل ذلك لا بد من قوة دفينة داخل الحَبّ وداخل النوى فيها عناصر النماء تنبت في الظروف المناسبة. والنواة والحبة تشقّان طريقهما في الحياة وتكون كل منهما مشابهة للنبات أو الشجرة التي أنتجتها بحيث لا تنتج حبة القمح إلا قمحاً ولا نواة المشمش إلا شجرة المشمش.

ولكن السؤال: من أوجد تلك القوانين التي تتحكم في وراثة أنواع النبات والشجر وتمتلك القدرة على النمو، ومن أين جاءت النباتات الأولى؟

لا يستطيع أحد أن يقول إنها وُجدت بمحض المصادفة أو إنها أنشأت نفسها بنفسها، ولكن الجواب المنطقي هو أن هناك قدرة خفية حكيمة أبدعت النبات وهي قدرة الله سبحانه التي خلقته وجعلت منه غذاء ومنفعة للإنسان والحيوان.

وبعد ذكر الحَب والنوى يقف بنا القرآن أمام انبثاق الحي من الميت:

﴿يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ومُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ﴾ فالله سبحانه يخرج الحيّ من الميت، كفرخ الطير يخرج من البيضة، والنبات من الحبّ، ففي البيضة جنين حي، وفي الحب مادة حية، ولكن المقصود من كونها ميتة هو من حيث إنها لا تظهر عليها علامات الحياة من حركة ونمو إلا إذا تهيأت لها أسباب الحياة، فالحياة فيها كامنة ولكنها خامدة خمود الأموات فكأنها ميتة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الحي ينمو ويتحرك وتستمر حياته بأكل أشياء ميتة، والغذاء ميت لا حياة فيه، بل إن خلايا الجسم نفسها في أثناء دورة الحياة تتجدد فيفنى منها ما يفنى ليحل محلها خلايا حية جديدة، ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ أي ذلكم المحي والمميت هو الله ذو القدرة العجيبة المستحق للعبادة فكيف تُصرَفون عن الحق فتعبدون غير الله الذي هو خالق الأشياء كلها؟

فدورة الحياة والموت هي معجزة الكون التي صنعها الخالق، والسمات الرئيسية فيها: إن الماء وثاني أكسيد الكربون والتروجين والأملاح غير العضوية في التربة تتحول بفضل طاقة الشمس والنباتات الخضراء وأنواع معينة من البكتريا إلى مواد عضوية هي مادة الحياة في الحيوان، والقرآن أشار إلى الماء ودوره في حياة الكائنات الحية بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠] كما يشير القرآن إلى خلق الحياة في الأرض الميتة ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣].

ثم يقف القرآن بنا أمام المظاهر الطبيعية وما فيها من روعة تدل على إبداع الخالق في صنعه: ﴿فَالِقُ الإِصْبَاحِ﴾ الإصباح: جمع صبح، والصبح والصباح معناهما واحد وهما أول النهار، أي أن الله سبحانه هو خالق الضياء الذي يشق ظلام الليل بضوء الشمس، فالصباح ينفلق عن الظلمة ويشقها ليخرج النور.

وبين انفلاق الحبِّ والنّوى وانفلاق الإصباح صلة وثيقة، وإن نمو النبات والشجر مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالضوء، وذلك أن الحب والنوى بعد انفلاقهما يحتاجان إلى غذاء وهذا الغذاء يتكون من تربة الأرض بواسطة جذور النبات والماء والضوء ﴿وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً﴾ أي وهو الله الذي جعل الليل ليسكن فيه الإنسان ويستريح من عناء العمل في النهار، والنوم عنصر أساسي لحياة الإنسان ﴿والشَّمْسَ والقَمَرَ حُسْبَاناً﴾ أي وجعل الله الشمس والقمر وسيلة للتوقيت ومعرفة الزمن. فالأرض تدور حول الشمس في مدار يستغرق سنة كاملة، كما أن القمر يدور حول الأرض، وتستغرق دورته الكاملة حول الأرض نحو ٢٩ يوماً ونصف اليوم ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ ذلك تدبير الله المحكم فهو القوي الغالب العليم بأحوال خلقه.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا في ظلماتِ البَرِّ والبَحْرِ﴾ أي وهو الله سبحانه الذي خلق لكم النجوم لتهتدوا بمواقعها إلى مقاصدكم وأنتم سائرون في ظلمات الليل بالبر والبحر، هكذا كانت النجوم منذ القدم وما تزال هي المعالم التي يهتدي بها الإنسان في سفره براً وبحراً. ويستفاد من رصد النجوم في تعيين موقع المسافر وتحديد الاتجاه الذي يسعى إليه، ومع تقدم العلم أصبحت الملاحة البحرية والجوية والبرية عِلماً وفنًّا دقيقاً يعتمد عليه الإنسان وذلك باستخدام آلات السدس والبوصلة والأقمار الاصطناعية وبالرجوع إلى الجداول الخاصة بذلك، بل إن رجال الفضاء في الآونة الأخيرة قد استعانوا بالنجوم في تحديد اتجاههم في بعض مراحل سفرهم ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي هذه الهداية في السفر

المستفادة من النجوم قد بيّنها الله ووضّحها لقوم يستدلون بها على كمال علمه وقدرته وأنه سبحانه واحد لا شريك له.

ثم يذكّر الله بني آدم بنعمه عليهم حيث أوجدهم من العدم:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ أي أن الله هو الذي ابتدأ خلقكم أيها الناس من نفس واحدة وهو آدم فهو أبو البشر كلهم، وحواء مخلوقة منه ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ أي أن مستقر الإنسان وهو جنين في رحم أمه ومستودع الإنسان بعد موته يكون في الأرض، وقيل: المستقر في أرحام الأمهات والمستودع في أصلاب الآباء وقيل: مستقرها في الدنيا ومستودعها في الآخرة، وقيل غير ذلك[1].

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي بيّن الله الحجج الدالة على وحدانيته بالبراهين الواضحة، والحجج القاطعة لقوم يفهمون آيات القرآن ويستدلون بها على وحدانية الله.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً﴾ وهو الله سبحانه أنزل من السحاب مطراً ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فالله جعل الماء وهو مادة واحدة سبباً في إخراج صنوف النبات التي يختلف نوعها ومذاقها والتي ينتفع بها الإنسان والحيوان ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِباً﴾ أي فأخرج الله من الماء

---

(١) يقول الدكتور عدنان الشريف في تفسيره العلمي لهذه الآية بما ننقله عنه باختصار: المستقر هو المكان الذي جعله الله سبحانه مستقراً للأشياء الآتية من الخارج. والمستودع هو المكان الذي جعله سبحانه مستودعاً ومصدراً للأشياء. وعلى ضوء علم الوراثة والكيمياء العضوية ووظيفة الأعضاء عند الإنسان تبين لنا الأبعاد العلمية الإعجازية في هذه الآية وهي: إن كل خلية أو عضو في جسم الإنسان هو في نفس الوقت مستقر لمواد كيميائية تأتيه من الخارج عن طريق الجهاز الهضمي والدم والسائل اللمفاوي، وكل خلية أو عضو في الإنسان هو أيضاً مستودع ومصدر الأشياء، مثال على ذلك مبيض المرأة هو مستودع الخلايا الجنسية الأنثوية، وهو في نفس الوقت مستقر لمواد كيميائية مغذية تأتي من خارجه بواسطة الدم، كذلك بالنسبة للخصية التي هي مصنع الخلايا الجنسية ومستودعها، ومستقر المواد الكيميائية الواردة إليها من الدم.

زرعاً ذا أوراق خضراء يخرج منه حبًا متراكماً بعضه فوق بعض كسنابل القمح ونحوها. وهذا ما أدركه العلم من أن النبات ينتج المواد الغذائية بواسطة خلايا الورقة الخضراء (الكلوروفيل) التي تقوم بعملية التمثيل الضوئي والتي هي من العناصر المهمة لتكوين الحبوب والثمار، هذا بالإضافة إلى الماء الذي يسقي جذور النبات ويساعدها على امتصاص الغذاء من الأرض ﴿وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ والطلع: ما يبدو من ثمر النخل في أول ظهوره، والقنوان: جمع قنو وهو عنقود النخل الذي يحمل التمر. والمعنى: ويخرج الله من الماء شجر النخيل التي تحمل عناقيد من التمر ﴿دَانِيَةٌ﴾ قريبة ينالها القائم والقاعد ﴿وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ وبساتين من أغراس العنب ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ كما يخرج الله من الماء شجر الزيتون والرمان بعضه متشابه وبعضه غير متشابه في الهيئة واللون والطعم مما يدل على كمال قدرة الخالق ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾ انظروا أيها الناس نظر اعتبار وتبصر إلى خروج هذه الثمار من الشجر وإلى نضجها الكامل بعد أطوار مختلفة وما تحتويه من مركّبات مختلفة من السكريات والزيوت والبروتينات والنشويات وغيرها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إن فيما ذكر من إنزال الماء من السماء وإنبات هذه الأصناف المختلفة من الأشجار التي فيها نفع للناس، لدلائل باهرة على وجود الله ووحدانيته وقدرته وحكمته.

المتأمل في الآية السابقة يرى أن الله قدم الزروع التي تنتج الحبوب على سائر الأشجار لأن الحبوب أساس التغذية، أما الأشجار فهي تحمل الفواكه في الأغلب، ثم قدم النخيل على غيره من الشجر لأن ثمره طعام وحلوى وفي النخيل من المنافع والخصائص ما ليس لغيره. وجاء ذكر العنب بعدئذ لأن العنب فاكهة شائعة حافلة بالفوائد أما الزيتون فمادته وزيته من العناصر المهمة في التغذية. وأخيراً ذكر الرمان لأنه فاكهة تحتوي على منافع شتى فسبحان من خلق مما تنبت الأرض ما ينتفع به الإنسان ويتمتع بخيراته.

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

شرح المفردات

وجعلوا لله شركاء الجن: أي وجعل المشركون الجن شركاء لله في الألوهية.

وخرقوا: اختلقوا وافتروا.

بديع السموات والأرض: مبدعهما ومخترعهما لا عن مثال سابق.

أنّى يكون: كيف يكون.

صاحبة: زوجة.

وكيل: رقيب، حفيظ، يتولاّه.

لا تدركه الأبصار: إدراك الشيء، الوصول إليه، والإحاطة به.

اللطيف: العليم بدقائق الأمور وخوافيها.

بصائر: جمع بصيرة، وهي آيات القرآن وحججه التي يهتدون بها إلى الحق فهي النور الذي يبصر به القلب.

بحفيظ: برقيب لأعمالكم.

نصرّف الآيات: نبيّنها.

درست: تعلمت.

افتراءات المشركين على العزة الإلهية

ثم ينتقل القرآن إلى الطعن بمن ادعوا أن لله شركاء في خلقه فيقول الله سبحانه مستنكراً لهم:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ أي وجعل هؤلاء المشركون الجن شركاء لله سبحانه في الألوهية والعبادة ﴿وَخَلَقَهُمْ﴾ أي وقد خلق الله الجن من العدم فكيف يكون المخلوق شريكاً للخالق؟ والمراد بالجن إبليس وذريته من الشياطين فقد عبد الشيطان أقوام وسموه ربّاً ومنهم من سماه إلّه الشر، كما أن المشركين أطاعوا الشياطين في أمور الشرك بالله والمعاصي ﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي واختلق المشركون وكذبوا على الله حيث جعلوا له بنين وبنات من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب، وفي هذا تنبيه على ضلال غيرهم ممن ادعى بأن لله ولداً كما زعم بعض اليهود بأن عزيراً ابن الله، وكما زعم النصارى بأن المسيح ابن الله ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ﴾ تنزّه الله تعالى وتقدّس عما يصفه هؤلاء المشركون بأن لله شركاء وأن له بنين وبنات.

﴿بَدِيعُ السَّمٰوات وَالأَرْضِ﴾ الإبداع: الاختراع، أي إيجاد الأشياء على نحو ليس له نظير سابق. فقد أوجد الله سبحانه هذا الكون على غير مثال سبق ولا شريك يعينه ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي فكيف يكون له ولد كما زعموا ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ والصاحبة هي الزوجة، أي لم تكن له زوجة تصاحبه كي يأتي منها الولد ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ﴾ وهو الله سبحانه خالق كل شيء في هذا الكون، وهو عالِم بجميع خلقه لا يغيب عن علمه شيء.

فالله نفى عن نفسه الولد بإعلان أنه اختص بخلق السماوات والأرض، ومن كان كذلك لا يصح أن يكون له ولد لأن من شأن الولد أن يكون قادراً على مثل ما يقدر عليه

أبوه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى إن من شأن الولد أن يتوالد من ذكر وأنثى متجانسين والله سبحانه لم تكن له زوجة يأتي منها الولد.

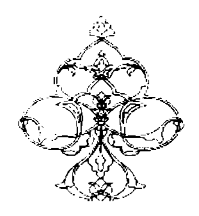
﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شيءٍ فَاعْبُدُوهُ﴾ ذلكم: أي الموصوف بما تقدم من الصفات الجليلة هو الله مالك أمركم ومربّيكم الذي خلق ما كان وما سيكون الجدير بالعبادة وحده فاعبدوه ولا تعبدوا سواه من بعض خلقه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شيءٍ وَكِيلٌ﴾ وهو سبحانه متولّي أمور خلقه رقيب على أعمالهم يقوم بأرزاقهم والمتصرف في شؤون ملكوته وفق علمه وحكمته الباهرة.

﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ الأبصار هي العيون التي نرى بها المرئيات. والإدراك إذا أسند إلى العين دل على التعمق في الرؤية، لأن كلمة أدرك في استعمالاتها اللغوية تدل على الوصول إلى غاية الشيء ومن هنا كانت الآية تنفي إدراك رؤية الله، هذا في الدنيا أما في الآخرة فقد نص القرآن على جواز رؤية المؤمنين لربهم قال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ . إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣]. كما جاء في الحديث الشريف بأن المؤمنين يرون ربهم وهم في جنات النعيم ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ وهو سبحانه يرى جميع المرئيات لا يخفى عليه شيء منها ﴿وَهُوَ اللطِيفُ الخَبِيرُ﴾ وهو الرفيق بعباده، العالم بدقائق الأمور، الخبير بشؤون خلقه.

﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ البصائر: جمع بصيرة وهي الحجة واليقين بالشيء والعلم به كما تأتي بمعنى العبرة. والمعنى: قد جاءكم أيها الناس حجج من عند ربكم تميّزون بها الهدى من الضلال، والإيمان من الكفر ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ فمن اهتدى بهذه الحجج إلى الحق فلنفسه اهتدى ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ ومن تعامى عن هذه الحجج ولم يهتد إلى الحق الذي دعا الله سبحانه إليه فضرر ذلك يعود على نفسه لأنه يتعرّض لغضب الله وعذابه في الآخرة. ثم أمر الله سبحانه أن يقول

لقومه: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي وما أنا عليكم برقيب أحصي عليكم وأحفظكم من الضلال، وإنما أنا رسول أبلّغكم رسالات ربي.

﴿وكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ﴾ أي وكما بيّن الله آيات القرآن والحجج الدالة على وحدانيته في هذه السورة كذلك يبيّن الله آياته وحججه في كل موطن لتقوم الحجة على المشركين ﴿وَلِيَقُولوا دَرَسْتَ﴾ أي وليقول المشركون: قد درست يا محمد هذا القرآن على أهل الكتاب وتعلمت منهم، وهكذا عندما يُفحم المشركون لا يجدون أمامهم مخرجاً إلا افتعال الكذب، مع العلم أن اليهود والنصارى لم يكن لهم وجود في مكة، ولم يتردّد محمد على الأحبار والرهبان ليتعلم منهم أمور الدين. وما قاله المشركون قديماً في حق النبي محمد ﷺ يقوله بعض المستشرقين والمبشرين حالياً في سبيل طمس الإسلام وتعمية الناس عن حقائقه وصرفهم عن الاهتداء به، ولكن مهما حاولوا في هذا السبيل فإن محاولاتهم باءت بالفشل، وها هو الإسلام قد تعاظم ظهور حقائقه للعالم المتمدن يوماً بعد يوم بعد انتشار وسائل الإعلام وبواسطة الكتب بسائر اللغات كما وإننا نسمع أن كثيراً من الأحرار في العالم قد اعتنقوا الإسلام لأنهم وجدوا فيه ضالتهم المنشودة. ثم ختم الله الآية بقوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي وليبين الله أسرار القرآن لقوم يعلمون الحق فيتبعونه، ووصفهم الله بالعلم للإيذان بأن المشركين ومن هم على شاكلتهم هم في غاية الجهل ولا حظ لهم من العلم والمعرفة.



﴿ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ .

شرح المفردات

حفيظاً: رقيباً مهيمناً.

بوكيل: حفيظ.

عَدْواً: اعتداء وظلماً.

زيَّنَّا: حسَّنَّا.

وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم: أي وحلفوا بالله بأغلظ الأيمان عندهم.

آية: معجزة.

طغيانهم: ضلالهم وتجاوزهم الحد في العصيان.

يعمهون: يعمون عن الرشد أو يتحيرون.

النهي عن سب معبودات المشركين

وبعد أن بيّن القرآن وحدانية الله بالحجج والبراهين ونفى عنه الولد توجّه بالخطاب إلى رسول الله محمد ﷺ وإلى المؤمنين للالتزام بالأمور الآتية:

﴿ٱتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي اتبع يا محمد ما أمرك به ربك في الوحي الذي أوحى به إليك فاعمل به فإنه لا معبود سواه يستحق العبادة ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وأعرض عن أقوال المشركين ولا تبالِ بافتراءاتهم الباطلة وتكذيبهم لك، وامضِ في تبليغهم بما أوحيناه إليك من القرآن.

﴿وَلَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ أي لو أراد الله أن يعبده هؤلاء المشركون وأن لا يشركوا به شيئاً لجعلهم يتجنَّبون الشرك قسراً ولكنه لم يفعل ذلك بل تركهم لاختيارهم ليحصل لهم الثواب على إيمانهم والعقاب على كفرهم ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ وما جعلناك يا محمد قيّماً وحافظاً عليهم تُحصي أعمالهم لتحاسبهم وتجازيهم عليها ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وما أنت بقيّم عليهم في أمر جزائهم وتدبير مصالحهم فتجبرهم على الإيمان، إنما عليك البلاغ.

ثم يخاطب الله المؤمنين بقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي ولا تشتموا الأصنام التي يعبدها المشركون من غير الله ﴿فَيَسُبُّوا ٱللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فيردّ المشركون على هذا الشتم بأن يشتموا الله تعالى اعتداء وتجاوزاً عن الحق إلى الباطل وعن جهالة بما يجب لله من التعظيم، مع العلم أن المشركين كانوا يقرّون بوجود الله تعالى وأن آلهتهم إنما عبدوها لتكون شفعاء لهم عند الله.

فقد حرّم الله تعالى سبّ آلهة المشركين مع كون السبّ إغاظة وإهانة لآلهتهم لأن ذلك قد يفضي إلى سبّ المشركين لله تعالى لإغاظة المؤمنين.

وقد روي في أسباب نزول هذه الآية أن المسلمين كانوا يسبّون أصنام الكفار فيردون عليهم بالسباب لله سبحانه فنهاهم الله عن ذلك لئلا يتسببوا بالسباب لربهم.

وَوَجْهُ النهي عن سبّ أصنامهم هو أن السباب لها لا يترتب عليه فائدة بل يزيد الفجوة بين المؤمنين والكافرين، ولهذا كان من صُلْبِ آداب الدعوة في الإسلام ما جاء

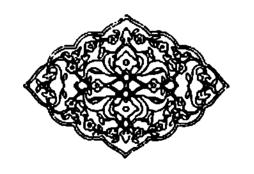
في القرآن ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥] ولهذا لا يحلّ لمسلم أن يسبّ أديان الغير ومظاهر العبادة فيها وتحقيرها لأنهم بذلك يبرّرون لأتباع هذه الديانات تحقير الإسلام وشعائره ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ زيّن: حسَّن. أي كما حُسِّن لهؤلاء المشركين عبادة الأوثان والأصنام كذلك حسّن الله لكل أمّة من الأمم عملهم فقد زُيّن لأهل الطاعة الطاعة ولأهل الكفر الكفر، وقد بيّن الله للناس طريقي الخير والشر فيختار كل فريق منهم ما يوافق ميوله من طاعة الله أو معصيته. فالله سبحانه زيّن للمؤمنين الإيمان به وطاعته كما زيّن الشيطان للكافرين الشهوات الضارة وسوء أعمالهم فرأوها حسنة ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَرْجِعُهُمْ﴾ ثم مصيرهم جميعاً بعد الموت إلى ربهم ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فيخبرهم يوم القيامة بما كانوا يعملون في الدنيا، فيجازيهم على أعمالهم، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشرّ.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أيْمَانهم: جمع يمين وهو القسم، أي وأقسم هؤلاء المشركون بأقصى جهدهم وطاقتهم في القسم ﴿لَئِن جَاءَتْهُم آيَةٌ﴾ لئن جاءتهم معجزة كما جاءت على يد الأنبياء السابقين ﴿لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ لَيُصدّقوا بأنها من عند الله وأن رسول الله هو صادق فيما يبلّغه عن ربه ﴿قُل إِنَّما الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾ قل يا محمد إنما المعجزات هي من عند الله وهو القادر على الإتيان بها دون أحد سواه. ولمّا كان المؤمنون يتمنون تحقيق ما يطلبه المشركون من معجزات طمعاً في إيمانهم، لذا خاطب الله المؤمنين مبيناً الحكمة في عدم تحقُّق مطلب المشركين: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّها إِذَا جَاءَتْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ وما يدريكم أيها المؤمنون إذا جاءت هذه المعجزات التي طلبها المشركون أنهم لا يصدّقون بأنها من عند الله ولا يصدّقون برسول الله وما جاءهم به من الوحي من عند ربه، بل يظلون على ما كانوا عليه من الكفر والجحود والعناد؟

هذا وقد غفل المشركون عن أن القرآن بما يختص به من بلاغة وهداية هو المعجزة الكبرى التي أيّد الله بها رسوله محمداً حيث تحدى العرب وهم أهْل الفصاحة والبلاغة أن يأتوا بسورة من مثل سُوَره فعجزوا عن ذلك عجزاً مبيناً وكما عجز غيرهم عن ذلك على مر العصور.

ويكفي ما جاء به القرآن من إصلاح للمجتمعات العربية التي كانت مرتعاً للفوضى والمظالم والخرافات، كل ذلك غاب عن أنظارهم بسبب ضيق تفكيرهم وتعصبهم الأعمى لمعبوداتهم الباطلة.

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُم وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لم يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ والتقليب: هو تحويل الشيء عن وَجْهِهِ إلى وجه آخر. والمعنى: وما يشعركم أيها المؤمنون أن الله يحوّل قلوب المشركين عن إدراك الحق فلا يفقهونه، ويحوّل أبصارهم عن معالمه فلا يبصرونه، ويكون حالهم بعد نزول المعجزات التي اقترحوها كحالهم من قبل، وهو البقاء على الكفر والاستمرار عليه ﴿وَنَذَرُهُمْ في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي ويترك الله هؤلاء المشركين في تجاوزهم الحد في العصيان والشر في حيرتهم لا يهتدون لحق ولا يبصرون صواباً بسبب استحواذ الشيطان عليهم.



﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

شرح المفردات

حشرنا: جمعنا.

قُبُلاً: مواجهة ومعاينة.

زُخْرُفَ القول: القول الذي زُيّن ومُوّه بالكذب.

غروراً: خداعاً.

فذرهم: فاتركهم.

يفترون: يختلقون الكذب.

ولتصغى: ولتميل.

أفئدة: قلوب.

وليقترفوا ما هم مقترفون: وليكتسبوا من الأعمال السيئة ما هم مكتسبون.

شياطين الجن والإنس ووساوسهم للناس

وبعد أن ألح المشركون في طلب المعجزات كي يؤمنوا بالله ورسوله ويتركوا عبادة الأصنام تأتي الآيات التالية لتبين أنهم لم يكونوا ليؤمنوا ولو أتتهُم المعجزات، كاشفة بذلك عن حقيقة أمرهم، قال تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الملائِكَةَ﴾ أي لو أنزلنا على المشركين الملائكة

حتى يشهدوا لك يا محمد بالنبوة ﴿وَكَلَّمَهُمُ الموْتَى﴾ أي تحادثوا معهم بعد إعادتهم للحياة وأخبروهم بصدق ما جئت به من الهدى ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِم كُلَّ شَيء قُبُلاً﴾ والحشر: الجمع، أي وجمعنا إليهم كل الموجودات على الأرض جماعة جماعة من سائر المخلوقات مواجهة يقابلونهم ويرونهم بأعينهم ويحاولون إقناعهم ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي ما كانوا ليؤمنوا بوحدانية الله ويستجيبوا لهذه المعجزات ﴿إلاَّ أنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ إلا إذا شاء الله لهم الإيمان، ولكن لن يكون الإيمان منهم على سبيل الإجبار بل على سبيل الاختيار ﴿وَلَكِنَّ أكثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ وإسناد الجهل إلى أكثرهم يفيد أن منهم عقلاء من أهل الرأي يُرجى إيمانهم.

وقد روي في أسباب نزول هذه الآية: أن المستهزئين من المشركين أتوا رسول الله في نفر من أهل مكة، فقالوا لرسول الله: ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم: أحق ما تقول أم باطل؟ أو أرنا الملائكة يشهدون لك أنك رسول الله، أو ائتنا بالله والملائكة قبيلاً (أي مقابلة) فنزلت الآية.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإنْسِ وَالجِنِّ﴾ أي كما ابتليناك يا محمد بهؤلاء الأعداء من مشركي قومك كذلك ابتلينا الرسل من قبلك بأن جعلنا لهم أعداء يؤذونهم من شياطين الإنس والجن، وفي هذا مواساة للنبي ﷺ بما يلقاه من أذى على يد أعدائه.

وشياطين الجن هم نوع من الموجودات الخفية المجردة عن المادة. والجنّ منهم الصالحون ومنهم الكفرة. وشياطين الجنّ هم الكفرة من الجنّ.

وشياطين الإنس[١] هم الذين يفعلون مثل شياطين الجن من فعل الخبائث وإضلال الناس. وعلى هذا فهناك شياطين من الإنس وشياطين من الجن، والشيطان هو

---

(١) الإنس: هم جنس الإنسان وهو مشتق من التأنس والإلف لأن الإنسان يألف بالإنسان ويأنس به.

كل عاتٍ[١] متمرد[٢] من الجنّ والإنس. وشياطين الإنس أشد تمرداً من شياطين الجن لأن شيطان الجن إذا عجز عن إغواء المؤمن الصالح وأعياه استعان على إغوائه بشيطان الإنس ليفتنه، ويدل على صحة هذا القول ما روي عن أبي ذر قال: دَخَلْتُ المسْجِدَ ورسولُ اللَّهِ فيه فَجِئْتُ فَجَلَستُ إلَيْهِ فقال: «يا أبا ذَرّ تَعَوَّذ باللَّهِ مِنْ شَرِّ شياطِينِ الجِنِّ والإِنسِ، قُلْتُ: أَوَ للإِنْسِ شياطين؟ قَالَ: نعم»[٣].

﴿يُوحي بَعْضُهُم إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً﴾ والوحي: هو إعلام بخفاء، ولماذا يوحي بعضهم إلى بعض خفاءً؟ لأن قوة الحق لا تجعل الشياطين قادرين على الجهر بوسوستهم، بينما أهل الحق يتحركون علانية ولا يستخفون من الناس.

والذين يوحي بعضهم إلى بعض هم شياطين من الإنس والجن، إنس يوحون لإنس وكذلك يوحي الجنّ للإنس للغرض نفسه. وزخرف القول: هو باطله الذي حُسِّنَ وموّه بالكذب، وكل قول حسّنته وزيّنته وهو باطل فهو زخرف ﴿غروراً﴾ والغرور: هو الخداع. أي أن الشياطين يزينون للناس الشهوات والمعاصي ويقومون بإغرائهم وخداعهم ليقترفوها بكلمات مزخرفة بإظهار فائدة موهومة ويسترون عن الناس مضرة هذه المعاصي والشهوات ويصرفونهم عن الحق إلى الباطل ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي ولو شاء ربك يا محمد أن لا يفعلوا هذا الإيحاء بالشرّ ما فعلوه لأنه لم يشأ أن يُغَيِّرَ عقولهم ويجبرهم على خلاف ما حسَّنته لهم أهواؤهم، لأن الله خلقهم مستعدّين لفعل الخير أو الشر وأعطاهم الخيار ليختاروا سلوك أي الطريقين، ومحال أن يجبرهم على فعل السوء ثم يعاقبهم عليه، لأن الله سبحانه من صفاته العدل وأنه يتنزه عن الظلم ﴿فَذَرْهُم وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ فاتركهم يا محمد وما يفترونه عليك من الكذب في شأن نبوّتك فإننا سنعاقبهم على افترائهم هذا.

---

(١) عات: استكبر وجاوز الحد.

(٢) متمرد: شرير.

(٣) أخرجه النسائي في السنن والإمام أحمد في المسند.

﴿وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ﴾ ولتصغى: أي لتميل إليه، والمعنى: يوحي بعض الشياطين إلى بعض الناس زخرف القول ليخدعوهم وينشأ عن ذلك أن تميل إليه قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وعدم إيمانهم بالآخرة ينشأ عنه عدم توخّيهم في أعمالهم الحصول على الثواب من الله أو البعد عما يسخط الله، بل كانوا يتّبعون أهواءهم وما تحسّنه لهم شهواتهم ﴿وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُقْتَرِفُونَ﴾ وليرضوا بذلك القول المزخرف الباطل بعدما مالت إليه نفوسهم وليكتسبوا من الأعمال الخبيثة ما هم مكتسبون، يقال: اقترف ذنباً إذا أتاه وفعله.

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾.

شرح المفردات

أبتغي: أطلب.

حَكَماً: حاكماً يفصل بيني وبينكم.

مفصّلاً: مبيّناً.

الممترين: الشاكّين.

يَخْرُصون: يكذبون.

القرآن هو سبيل الله الحق

ثم يبيّن الله أن ما أنزله من الوحي على رسوله محمد هو الحق الجدير بالاتباع:

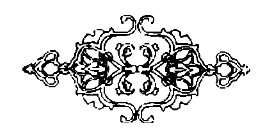
﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً﴾ حَكَماً: هو من يتحاكم إليه الناس باختيارهم ويرضون بحكمه، أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله: أفغير الله أطلب حَكَماً يقضي بيني وبينكم، ذلك أن المشركين كانوا يقولون للنبي ﷺ: اجعل بيننا وبينك حَكَماً، فأمره الله أن يجيبهم بأنه لا يرضى أن يكون غير الله حَكَماً ﴿وَهُوَ الذي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ المراد بالكتاب هنا القرآن، أي أن الله أنزل القرآن فيه العقائد والشرائع والحلال والحرام ﴿والَّذِين آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ﴾ أي والذين أعطاهم الله عِلم التوراة والإنجيل كعلماء اليهود والنصارى ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ يعلمون أن القرآن منزّل من ربك يا محمد بالحق وذلك لما قرأوا من البشارات في كتبهم عن مجيء نبي تنطبق صفاته على صفاتك يا محمد من أنك أُمّيّ لا تقرأ ولا تكتب، ثم تأتي بهذا القرآن المشتمل على ما جاء في الكتب الإلهية السابقة من أحوال الأمم، ومبيناً ما طرأ عليها من تحريف وتبديل، مع شريعة جديدة تتناسب مع التطور الذي طرأ على العالم في تقدمه ورقيه ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ فلا تكونن ـ أيها المخاطب ـ من المتشككين في أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق وأن عدم اعترافهم بهذا مردّه إلى المكابرة والحسد.

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ وكلمة ربك يُراد بها الكلام الكثير كقولهم: قال الشاعر في كلمته يعني في قصيدته، والكلمة تطلق على الجملة والطائفة من القول في معنى واحد وغرض واحد، و﴿كلمة ربك﴾ المراد بها القرآن لأنه في جملته شيء واحد في إعجاز النظم والهداية ﴿صِدْقاً وعَدْلاً﴾ فهو صادق فيما أخبر به من القرون الماضية وعما هو كائن إلى يوم القيامة وفيما أخبر به من ثواب المطيع في الجنة وعقاب العاصي

في النار وهو عدل فيما حكم من الأمر والنهي والحلال والحرام وسائر الأحكام ﴿لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ التبديل: هو التغيير، أي لا مغيّر لقضائه ولا خُلف لمواعيده، ولا يستطيع أحد أن يبدّل القرآن ويحرّفه كما فُعِلَ بالكتب الإلّهية السابقة ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ وهو السميع لأقوال العباد العليم بأحوالهم.

ثم بيّن القرآن أن أكثر سكان الأرض على ضلال لأن أهل الحق قلّة وأشياع الباطل كثير ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وإن تطع يا محمد أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله الذي هو طريق الحق ومنهج الصدق لأن أكثرهم ليسوا على الهدى ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ﴾ أي هؤلاء الكفار الذين يجادلونك لا يتّبعون الحق والصواب بل يتّبعون الظنون والأوهام التي لا تستند إلى الحقيقة، وهم ليسوا على بصيرة وحق في دينهم ﴿وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ وما هم إلاّ يكذبون على الله تعالى فيما ينسبون إليه من أمور لا تليق به، وهم يجعلون عبادة الأصنام وسيلة للتقرب منه، ويحللون أكل الميتة وغيرها من المآكل المحرّمة، وسوى ذلك من المنكرات.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي إن ربك يا محمد هو أعلم بمن يبتعد عن سبيله ويميل إلى العقائد الباطلة ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ وهو أدرى بالمهتدين السالكين طريقه المستقيم.



﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

شرح المفردات

وذروا: واتركوا.

وباطنه: ما خفي منه.

يقترفون: يكتسبون من الإثم.

لفسق: لخروج من طاعة الله إلى معصيته.

ليوحون إلى أوليائهم: ليوسوسون إلى أنصارهم من الكفار.

الحلال والحرام من الأطعمة

ولمّا كان حكم الحلال والحرام في المأكولات يستند إلى العقيدة الدينية ويرتبط بها لذا بيّن الله في الآيات التالية بعض أحكامها، من ذلك تحريم ما كان عليه المشركون

من أكل الذبائح التي ذُكِرَ اسم أصنامهم عليها عند ذبحها، وكذلك أكل الميتة، فقد روي أن أُناساً أتوا النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله: أنأكل ما نقتل ولا نأكل ما يقتل الله (أي الميتة) فنزلت الآية التالية:

﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي فكلوا ـ أيها المؤمنون ـ مما ذُكِرَ اسم الله دون غيره عليه من الأنعام والطير عند ذبحه واحذروا ما ذُبح للأصنام والأوثان ولغير الله، فَعُلِمَ من ذلك أن أكل الميتة ونحوها مما لم يذبح منهيٌّ عنه لأن ذِكْرَ اسم الله أو اسم غيره إنما يكون قبل بدء ذبح الحيوان كما هو معروف عند العرب والميتة هي التي تموت دون أن تُذبح وبالتالي لا يُذكر اسم الله عليها ﴿إِنْ كُنْتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ إن كنتم مصدّقين بآيات الله التي جاءتكم بالهدى، فالإيمان يقتضي العمل بما أحلّه الله.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وأي غرض لكم في ترك الأكل مما ذُكِرَ اسم الله عند ذبحه ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَا حَرَّمَ عَلَيْكم[1]﴾ وقد بيّن لكم ربكم الحلال من الحرام ﴿إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُم إِلَيْهِ﴾ أي ما ألجأتكم الضرورة إلى أكله من المحرمات بسبب تعرّض النفس للهلاك فإنه حلال لكم أكله بقدر الضرورة التي تحيا بها النفس ويدفع عنها الهلاك ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وإنّ كثيراً مِنَ الكفار يُضلّون الناس بتحريم الحلال وتحليل الحرام بأهوائهم التي تزيّنها لهم نفوسهم بغير عِلْمٍ مستند إلى شَرْعِ الله ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ أي أنه سبحانه هو أعلم بمن تعدّى حدوده فأحلّ ما حرّم وحرّم ما أحلّ مما يمليه عليه هواه، وفي هذه الآية وعيد لمن يعتدون على شريعة الله ويعبثون بها، وفي هذا المعنى جاء في القرآن ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ

---

(١) وقد بيّن الله المحرمات في الآية ١٤٥ من هذه السورة كما بيّن ذلك في أول سورة المائدة الآية الثالثة التي نزلت بعد هذه السورة.

وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾[النحل: ١١٦].

﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ الإثم: الذنب وهو أن يعمل الإنسان ما لا يحلّ له. فالله أمرنا أن نترك الإثم الظاهر وهو ما بدا من الجوارح وأمكن الإطلاع عليه كالزنا والسرقة مثلاً، كما أمرنا أن نترك الإثم الباطن كالكبر والرياء والنفاق والحقد والإضرار بالناس سرًا وما أشبه ذلك. والآثام الباطنة أخطر وأغلظ من الآثام الظاهرة. وقد كان بعض العرب في الجاهلية يأتون الزنا سراً ويرون ذلك حلالاً إذا كان في السرّ، وهناك طوائف إلى الآن تسير حسب هذا المعتقد، فحرّم الله الآثام سواء ما يحصل منها في السرّ وما يحصل في العلانية.

وهذا منهج أخلاقي لم تصل إليه أرقى الأمم، فالقوانين الوضعية التي تسير عليها الكثير من الأمم تحمي الناس من الآثام الظاهرة التي فيها إضرار بالمجتمع، أما منهج القرآن فهو يحمي الناس من ظاهر الإثم وباطنه. ولتثبيت هذا المعنى في النفوس جاء في القرآن ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤] فإذا علم الإنسان أن الله مطّلع على أعمال العباد سرّها وعلانيتها وأنه سيحاسب عليها كان ذلك رادعاً له عن اجتناب الآثام ﴿إِنَّ الَّذِين يَكْسِبُون الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾ إن الذين يعملون بما نهاهم الله عنه من الذنوب ويأتون ما حرّم الله سيُجزون يوم القيامة بما كانوا يكتسبون من الآثام.

﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لم يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي ولا تأكلوا ـ أيها المؤمنون ـ مما لم يُذكر اسم الله عليه عند ذبحه من الحيوانات التي أباح الله أكلها، أو ذُكِرَ عليه اسم غيره كالأصنام وغير ذلك أو مات حتف أنفه ﴿وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ وإنّ الأكل منها لمعصية وخروج عن طاعة الله إذا ذُكِرَ عليه اسم غير الله أو كان ميتة.

وفي مفهوم هذه الآية اختلف الفقهاء في حكم الذبيحة التي يحل أكلها ولم يُذكر اسم الله عليها فمنهم من قال: لا يحل أكل الذبيحة التي يترك ذكر اسم الله عليها ـ عمداً أو نسياناً ـ ولو كان ذلك من المسلم وإلى ذلك ذهب داود الظاهري وأحمد بن حنبل في رواية عنه.

ومنهم من قال: إن ترك التسمية نسياناً لا يضر، أما من تركها عمداً فلا تحلّ ذبيحته، وهو ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة.

ومنهم من يرى أن التسمية ليست شرطاً، فلو ترك المسلم التسمية ولو عمداً جاز أكل الذبيحة لأنه وإن لم ينطق اسم الله بلسانه فقلبه مؤمن به ذاكر له وهذا ما ذهب إليه الإمام الشافعي وفي رواية عن الإمام مالك.

هذا وقد روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها: «إن قوماً قالوا يا رسول الله: إن قوماً يأتوننا باللحم لا ندري أَذَكَروا اسم الله عليه أم لا؟ فقال رسول الله ﷺ: سمّوا الله عليه وكلوا».

﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِم لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ أي وإن شياطين الإنس والجنّ ليلقون إلى أنصارهم وأعوانهم من المشركين بالوساوس والأوهام ليجادلوكم بالباطل في تحريم أكل الميتة ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ وإن أطعتم ـ أيها المؤمنون ـ المشركين فيما يجادلونكم فيه من إبطال أحكام الإسلام إنكم إذن مثلهم في الشرك بالله وإن لم تدّعوا بأن لله شريكاً. يقول أحد العلماء: في الآية دليل على أن كل من أحلّ شيئاً مما حرّم الله تعالى أو حرّم شيئاً مما أحلّ الله تعالى فهو مشرك، وإنما سُمي مشركاً لأنه أثبت سوى الله حاكماً لأفعاله.

ثم يشبّه الله حال المؤمن وحال المشرك بهذا البيان البليغ:

﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، فالآية تنكر التماثل بين المؤمن والكافر.

فحالة المؤمن الذي كان ضالاً ثم أصبح مؤمناً شبّهها الله بالميت حيث أحياه بهداية الإسلام ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ وجعل الله له نوراً وهو القرآن يستنير به في أمور حياته وفي معاملته للناس.

أما حالة المشرك فقد وصفها الله بقوله: ﴿كَمَن مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ فالمشرك بالله يتخبط في ظلمات الكفر والضلال لا يعرف إلى أين يسعى وإلى أين يسير، ولا يعرف كيفية الخروج من الظلمات التي يتخبط فيها ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي كما حسَّنَ الله للمؤمنين إيمانهم وأعانهم عليه، حسّن الشيطان للكافرين ما كانوا يعملون من الكفر والعصيان حتى يظلوا في الظلمات.

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ

عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

شرح المفردات

أكابر: جمع الأكبر وهم الرؤساء والوجهاء والسادة.

مجرميها: جمع مجرم وهو مرتكب الإجرام والجُرم هو الذنب والإثم.

ليمكروا فيها: يدبرون الشر خفية.

صَغَارٌ: ذلٌ وهوان.

يشرح صدره للإسلام: يوسّع صدره لقبوله، وشرح الصدر توسعته.

حَرَجاً: أي ضاق ضيقاً شديداً.

الرِّجس: العذاب.

دار السلام: الجنة.

وليُّهم: ناصرهم ومؤيدهم.

مآل المجرمين وأثر الهداية في النفس

ثم يبيّن القرآن أن كبراء الأمة وزعماءها المترفين هم الذين يقفون في وجه رسُل الله ودعاة الإصلاح، قال الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا في كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِميها لِيَمْكُروا فِيهَا﴾

أجرم: أذنب وتعدى واكتسب أمراً مكروهاً. والمكر: تدبير الشر خفية والاحتيال لإيقاع الأذى بالغير وأكثر ما ورد المكر في القرآن في مكر الكفار بالرسل.

والمعنى: وكما جعلنا في مكة أكابر مجرميها ليمكروا فيها جعلنا في كل قرية من قرى الأمم رؤساء مجرمين مثلهم، وإنما جعل الأكابر مجرمين لأنهم بفضل زعامتهم

وما ينعمون به من مال كثير وجاه وترف تحملهم على المبالغة في حفظ تلك المكاسب والمحافظة عليها حتى ولو اضطروا إلى ارتكاب جميع الصفات الذميمة من غَدْرٍ ومكر وخداع والطعن بالرسل والمصلحين وهذا ما يحصل غالباً في أكابر الأمة ﴿وما يَمْكُرُونَ إلا بِأَنْفُسِهِمْ وما يَشْعُرُونَ﴾ أي وما يمكر هؤلاء الأكابر إلاّ بأنفسهم لأن وبال مكرهم يعود عليهم، ولكن العاقبة الحسنة هي للرسل، وفي هذا المعنى جاء في القرآن ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] والآية نزلت لمواساة رسول الله محمد ﷺ لما يلقاه من كبراء قريش من أذى واضطهاد.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ﴾ وإذا جاءت هؤلاء المشركين حجة من الله على صحة ما جاءهم به محمد ﷺ من عند الله، أو بمعنى: وإذا أنزلت على محمد آية من القرآن تدعوهم إلى الإيمان بالله وطاعته ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ قالوا لن نصدّق بما دعانا إليه محمد حتى يعطينا الله من المعجزات مثل ما أعطى موسى معجزة العصا التي شق بها البحر وتحولت إلى ثعبان هائل، ومثل ما أعطى الله عيسى من المعجزات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وأن تحصل لهم النبوة كما حصلت لمحمد ﷺ، قالوا ذلك حسداً منهم للنبي محمد ﷺ.

وقد روي أن الوليد بن المغيرة قال: والله لو كانت النبوة حقاً لكنتُ أنا أَحَقّ بها من محمد فإني أكثر منه مالاً وولداً، فنزلت هذه الآية.

وقد ردّ الله على هؤلاء الحاسدين الذين ظنوا أن النبوة تكون بالمال والعصبيات: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ هنا بيان لعظيم قدر النبي ﷺ وعلوّ مرتبته.

فالنبوة لا تُنال بالأماني ولكن الله يعلم من يصلح لها ومن لا يصلح والنفوس تتفاوت في قبول الفيض الإلّهي، ولا تصلح النبوة إلا لنفس طاهرة صافية بعيدة عن الرذائل الخلقية سليمة من الأمراض القلبية ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ

وَعَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ الصغار: الذل والهوان، وقد جعل الله عقابهم ذلاً وهواناً ليناسب كبرياءهم وطغيانهم، والذل هو ما حصل لهم في الدنيا من الهزيمة المخزية وعذاب القتل والأسر يوم معركة بدر حيث هلك الكثير من سادة قريش وعظمائهم كما سيحصل لهم الذل والهوان يوم القيامة بالإضافة إلى العذاب في نار جهنم ﴿بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ بسبب مكرهم برسول الله محمد ﷺ وعداوتهم له.

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسْلامِ﴾ الشرح: الكشف والفتح. وشرح الله صدره للإسلام: وسَّعه لقبوله وهيّأه للأخذ به.

هذا الشطر من الآية يمثل مرحلة من السلوك الإنساني تبدأ مع عرض الحق على أي إنسان، فإذا كان سليم العقل والفهم خالياً من العلل، يحسن الموازنة بين الحق والباطل ويستخدم عقله استخداماً نزيهاً فإنه ينساق طوعاً إلى جانب الحق، وبعد هذا يشرح الله صدره للإسلام الذي هو الدين الحق ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ في السَّماءِ﴾ هذه هي صفة الكافر المتعصب المعقّد الذي يرفض بمحض اختياره إحكام النظر فيما يُعرض عليه من الحق ويسترسل مع شهواته وأهوائه وهنا يجعل الله صدره ضيّقاً حرجاً لغلبة الكفر عليه، والحرج: أشد الضيق بحيث إنه لشدة ضيق صدره لا تنفذ الموعظة إلى قلبه ولا يدخل إليه نور الإيمان.

ثم وصف الله تبرّم الضالّ عن الحق وضيقه به بقوله: ﴿كَأَنَّما يَصَّعَّدُ في السَّماءِ﴾ هذا الشطر من الآية يبين إعجاز القرآن وأنه وحي إلهي لا من تأليف بشر، فمنذ خمسة عشر قرناً زمن نزول القرآن لم يكن الناس يدرون أن من يرتفع في السماء يضيق صدره، ولكن بعد ارتياد الطبقات الجوية العالية بواسطة الطائرات والمركبات الفضائية استطاع الإنسان أن يدرك ظاهرة طبيعية تنتج عن نقص الأوكسجين في تلك الطبقات العليا حيث يشعر الصاعد في هذا العلوّ بصعوبة في التنفس ويحسّ بالضيق في صدره ولهذا يزوّد

ربّان الطائرات مقصورة المسافرين بالأوكسجين اللازم للتعويض عن نقص الأوكسجين ليتمكنوا من التنفس بطريقة طبيعية.

وظاهرة ضيق الصدر شعر بها هواة التسلق في الجبال العالية كمرتفعات جبال هملايا وغيرها حيث يقلّ الأوكسجين، ومما يلفت النظر أن بلاد العرب ذات سطح منبسط وجبالها قليلة الارتفاع لا يأخذ الساكن فيها فكرة الصعود في السماء وما ينتج عنه من ضيق، وهنا نسجل بفخر اتفاقاً رائعاً للوصف القرآني مع الواقع العلمي.

﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِين لا يُؤْمِنُونَ﴾ أي كما يجعل الله صدر من أراد إضلاله ضيّقاً حَرَجاً كأنما يصّعّد في السماء كذلك يسلّط الله الشيطان عليه وعلى أمثاله ممن أبى الإيمان بالله ورسوله فيغويه ويصدّه عن سبيل الحق، هذا على تفسير الرجس بأنه الشيطان. وقيل الرجس هو ما لا خير فيه، كما أن من معاني الرجس العذاب.

﴿وَهَذَا صِراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيماً﴾ وهذا القرآن أو الإسلام الذي يشرح الله صدر من يريد هدايته هو طريق ربك المستقيم الذي لا عوج فيه ﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي قد بيّن الله آيات القرآن وما فيها من الوعد والوعيد، والثواب والعقاب، والحلال والحرام، لقوم يتذكرون بها ويتعظون بما فيها من المنافع والخيرات لهم.

﴿لَهُم دَارُ السَّلاَمِ عِنْدَ رَبِّهِم﴾ ودار السلام اسم من أسماء الجنة، أي لهؤلاء الذين يتّعظون بآيات القرآن ويعملون بما فيها من أوامر ونواهٍ، يجازيهم ربهم بدخول الجنة والتمتع بنعيمها، وإنما وصف الله الجنة بدار السلام، والسلام اسم من أسماء الله، لذا أضيفت الجنة إلى السلام إضافة تشريف. ومن معاني السلام: السلامة من العيوب والآفات، فلا يجد المؤمنون في الجنة ما ينغّص حياتهم ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ والله يتولّى أمر هؤلاء الصالحين بالتوفيق والهداية ﴿بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي جزاء لهم على طاعتهم لله واتّباعهم ما أمرهم به حتى استحقوا رضوانه.

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

شرح المفردات

يحشرهم: يجمعهم.

يا معشر: المعشر كل جماعة أمْرُهُم واحد ويحصل بينهم معاشرة ومخالطة.

أولياؤهم: جمع وليّ وهو الصّديق والناصر والتابع. أي أنصار الشياطين وأعوانهم.

بلغنا أجلنا الذي أجّلت لنا: وصلنا إلى الوقت الذي حددته لنا وهو يوم القيامة.

مثواكم: منزلكم ومستقركم.

يقصّون: يتلون.

وغرّتهم: وخدعتهم.

يُذْهِبْكُم: يهلككم.

ويستخلف من بعدكم ما يشاء: ينشيء خلقاً بدلكم بعد إهلاككم.

بمعجزين: أي بجَاعِلي ربكم عاجزاً عن إدراككم.

على مكانتكم: على قدر استطاعتكم وإمكانكم.

عاقبة الظلم والتحذير من وساوس الشياطين

وبعد أن بيّن القرآن الحلال من الأطعمة وحذّر من اقتراف الآثام انتقل بعد ذلك إلى وصف بعض مواقف الحساب للخلق يوم القيامة حيث يخاطب الله الجن والإنس موبخاً لهم على عصيانهم له:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِنَ الإِنْسِ﴾ أي واذكر يا محمد يوم يجمع الله الجنّ والإنس يوم القيامة ثم يقول الله سبحانه: يا جماعة الجنّ المفسدين قد أكثرتم من إغوائكم الإنس وإضلالكم إياهم **﴿وَقَالَ أولِيَاؤُهُم مِنَ الإِنْسِ﴾** وقال المشركون المُوالُون لشياطين الجن الذين اتبعوهم وأطاعوهم وتأثروا بإغوائهم: **﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾** واستمتاع الإنس بالجنّ هو انتفاعهم بوسوستهم حيث قبلوا منهم ما حسّنوه لهم من المعاصي فوقعوا فيها وتلذذوا بها، واستمتاع الجن بالإنس هو انتفاع الجن بتكثير أتباعهم من أهل الضلالة وطاعة الإنس لهم فيما يأمرونهم به فصاروا كالرؤساء للإنس **﴿وَبَلَغْنَا أجَلَنَا الّذي أَجَّلْتَ لَنَا﴾** حتى بلغنا الوقت الذي حدّدته لموتنا، أو بمعنى: بلغنا الوقت الذي أجّلته لحسابنا وهو يوم القيامة الذي نُبعث فيه أحياء. ثم قال الله سبحانه لهؤلاء الجماعة من الجن والإنس **﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ﴾** أي النار مأواكم ودار إقامتكم **﴿خَالِدِينَ فِيهَا**

﴿إلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أي ماكثين في عذاب جهنم أبداً لا تخرجون منها إلا من شاء الله إخراجه. وأغلب علماء الإسلام يرون أن مرتكبي كبائر الإثم من المسلمين لن يخلدوا في النار أبد الآبدين بل سوف يشفع لهم إيمانهم وتوحيدهم لله فيخرجون منها وإن طال المدى بفضل الله تعالى ﴿إنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ إن الله حكيم في تدبير خلقه، وعقابهم حسب درجات ذنوبهم، وهو عليم بكافة أحوالهم.

﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانوا يَكْسِبُونَ﴾ فالله سبحانه يقول: أي كما أنزلت العذاب بالجنّ والإنس الذين استمتع بعضهم ببعض كذلك نولّي بعض الظالمين من الإنس على بعض الظلمة، أي نسلّط بعضهم على بعض فنعاقب الظالم على يد ظالم مثله جزاء ما اقترف من ظلم، يقول ابن عباس: إذا رضي الله عن قوم ولّى أمرهم خيارهم، وإذا سخط على قوم ولّى أمرهم شرارهم. وقيل: إذا أراد الرعية أن يتخلصوا من أمير ظالم فليتركوا الظلم.

ثم يحكي لنا القرآن كيف يخاطب الله المشركين وعصاة الجنّ يوم القيامة موبخاً لهم على سلوكهم طريق الكفر والشر: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُم﴾ أي يا جماعة الجن والإنس: ألم يأتكم رسل من الله من بينكم تعرفون صدقهم وأمانتهم ﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُم آيَاتِي﴾ يخبرونكم بما أوحيت إليهم من آياتي الدالة على توحيدي ويقرأون عليكم كتبي ﴿وَيُنْذِرُونَكُم لِقَاءَ يَوْمِكُم هَذَا﴾ ويحذرونكم ويخوفوكم لقاء عذابي يوم القيامة في حال معصيتكم إياي ﴿قَالُوا شَهِدْنَا على أنْفُسِنا﴾ اعترفوا بأن الرسل قد أتتهم وبلّغتهم رسالات ربهم وأنذروهم ﴿وَغَرَّتْهُمُ الحيَاةُ الدُّنْيَا﴾ وخدعتهم الحياة الدنيا واطمأنوا بها ورفضوا العمل للآخرة بصالح الأعمال ﴿وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا في الدنيا كافرين بالله وبما جاءت به رُسُل الله من الهدى.

فالجن مكلفون بالعمل بشرائع الله كالإنسِ، وإن الله يعاقبهم على عصيانهم رسل الله وهم الذين يبعثهم الله من الإنس فيكون الجن مكلفين بشرائعهم كالإنس، ويرى بعض المفسرين بأن الله أرسل رسلاً من الجن إلى قومهم كما أرسل رسلاً من الإنس.

﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾: أي ذلك الذي تقدم من إرسال الرسل لأنه سبحانه لا يعاجل بالعقوبة أي قوم من أجل ظلم فعلوه، وهم غافلون لا يدركون عاقبة ما هم عليه، بل يُنَبَّهوا ويُنْذَرُوا قبل نزول العذاب بهم بواسطة الرسل، لأنه سبحانه لا يظلم أحداً، وفي ذلك يقول الله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ويقول الله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ والدرجات: هي ما يرتقي عليه الإنسان من أسفل إلى أعلى في سلّم أو بناء، والمراد بها هنا المنازل أو المراتب التي يصل إليها الإنسان بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ. فكلّ مكلّف من الإنس والجنّ يصنع في هذه الحياة مستقبله عند الله، وعلى قدر ما يبذل من جهد في طاعة الله أو يعصيه تكون درجته في الآخرة، فمنهم من هو أعظم ثواباً ومنهم من هو أشد عقاباً ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ والخطاب لرسول الله ومن معه من المسلمين فهو مواساة لهم لما يلقونه من أذى المشركين، ومن ناحية أخرى هو وعيد للمشركين وإخبار لهم بأن الله يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ما فعلوا في الدنيا.

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ والغني هو الذي لا يحتاج إلى غيره، والغني الحقيقي هو الله لأنه لا يحتاج إلى غيره بحال من الأحوال. فالله سبحانه هو الغني عن عباده وعن أعمالهم الصالحة وعبادتهم إياه، وهو سبحانه لم يأمرهم بما أمر، ولم ينههم

عن شيء لحاجته إليهم ولكن ليصلح حالهم وليتفضّل عليهم برحمته، ويثيبهم على إحسانهم إن أحسنوا، ومن مظاهر رحمته أن أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين وناصحين لهم إلى ما يسعدهم ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُم وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ﴾ يذهبكم: يهلككم، والاستخلاف: جعل الخلف عن الشيء والعوض عنه، والمعنى: إن يشأ الله يهلككم بسبب كفركم وينشىء من بعد هلاككم خلفاً غيركم أحسن طاعة لله منكم، فهنا وعيد بإهلاك المشركين ﴿كَمَا أَنْشَأَكُم مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ﴾ مثلما أنشأكم من ذرية قوم آخرين قد هلكوا قبلكم.

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ﴾ أي إن الذي يوعدكم به ربكم ـ أيها المشركون ـ من عقاب بسبب إصراركم على كفركم فهو واقع بكم لا محالة ﴿وَمَا أَنْتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي ولن تعجزوا ربكم هرباً منه في الأرض فتفوتوه لأنكم حيثما تكونوا فأنتم في قبضته وهو القادر على عقوبتكم بسبب معصيتكم إياه. وحقيقة المعجز هو الذي يجعل طالب الشيء عاجزاً عن نيله، ويستعمل مجازاً في معنى الإفلات من تناول طالبه.

﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي قل يا محمد للمشركين: اعملوا على غاية تمكُّنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وبكل ما أوتيتم من قوة وإمكانية من أجل استمراركم على الكفر ﴿إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ فإني مستمر على ما أنا عليه من دعوتكم إلى الحق، كما أنكم مستمرون على العناد والكفر، فسوف تعلمون عند نزول عذاب الله عليكم أينا كان المحق ﴿مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ والعاقبة آخر الأمر وأثر عمل العامل، فعاقبة كل شيء هي ما ينجلي عنه الشيء من أثر ونتيجة، أي فسوف تعلمون من تكون له العاقبة المحمودة من النصر في الدنيا ومن له النعيم في الدار الآخرة ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ إنه لا يفوز ولا يوفق عند ربه من كان ظلوماً كفاراً لا يتبع الحق ولا يسلك سبيل الصواب.

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

شرح المفردات

ذرأ: خلق.

الحرث: الزرع.

الأنعام: الإبل والبقر والضأن والمعز.

نصيباً: جزءًا.

لشركائنا: لأصنامنا.

زَيّن: حسَّن.

لِيُرْدوهم: ليهلكوهم بالإغواء.

وليلْبِسوا عليهم دينهم: ليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل حتى زلّوا عنه إلى الشرك.

ذرهم: دعهم واتركهم.

يفترون: يختلقون من الكذب.

حِجْرٌ: ممنوعة محرّمة.

أنعام حُرِّمت ظهورها: أي أنعام لا تُركب ولا يُحمل عليها شيء.

سفهاً: السفاهة الخفة في العقل والجهالة.

بعض مساوىء العرب في الجاهلية

كان للمشركين العرب في الجاهلية قبل الإسلام عادات مذمومة، وأفعال قبيحة تنمّ عن سفاهة عقولهم وفساد أحكامهم، فجاء الإسلام ناقضاً لها لمجافاتها العقل والفهم، ولما فيها من كفر وشرك بالله؛ وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام. يقول الله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيباً﴾ أي أن المشركين جعلوا لله سبحانه جزءاً مما خلق من الزروع والأنعام وهي الإبل والبقر والغنم والماعز ينفقونه على الضيوف والمساكين، كما جعلوا جزءاً من الزروع والأنعام لآلهتهم ينفقونه على سَدَنَتِها والقائمين بخدمتها ويذبحون عندها تقرّباً إليها. وما خصصوه لأصنامهم يفهم من قوله تعالى بعد ذلك ﴿فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾ والزعم: الكذب، فالمشركون كانوا يكذبون في تخصيصهم هذا لأنه لم ينزل بذلك

شرع إلَهي ولا حجة لهم بذلك. ومعنى لشركائنا: أي لأصنامنا، وسُمّيت شركاء لأن الشركاء من الشركة حيث جعل المشركون لها نصيباً من أموالهم، ويجوز أن يكون المعنى من الشرك بالله حيث جعلوا أصنامهم شركاء لله في العبادة، وأضافها الله إليهم لاعتقادهم بذلك.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إلى اللَّهِ﴾ فالجزء المخصص لأصنامهم من نماء الزرع ونتاج الأنعام فلا يصل إلى الله منه شيء، أي إلى المصارف التي شرع الله الإنفاق عليها كالصدقة وصلة الرحم وإكرام الضيف ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إلى شُرَكَائِهِمْ﴾ أي ما يجعلونه لله فهو يصل إلى أصنامهم وينفقونه في مصالحها. فإذا هلك وانتقص شيء مما جعلوه لأصنامهم عوّضوا عنه ما خصصوه لله، فمثلاً إذا أصابت آفة الزرع وأهلكته أخذوا ما خصصوه لله وأعطوه للأصنام، وإذا ماتت بهيمة من التي نذروها لله لم يعوضوها، وإن ماتت بهيمة كانوا نذروها للأصنام يعوضوها ويأخذوا بدلاً منها من القسم الذي نذروه لله ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي قبح هذا الحكم الذي أحدثه المشركون حيث لم يشهد بصحته عقل وشرع بل هو من سفاهة عقولهم، فكيف يرجحون جانب الأصنام وهي جماد لا تنفع ولا تضر على جانب الله تعالى في الرعاية والإنفاق والحفظ مع أن الله سبحانه هو الخالق للزروع والأنعام ولكل شيء في الوجود.

ثم بيّن القرآن بعضاً من أحكام المشركين الفاسدة التي تنمّ عن قسوة قلوبهم وهي قتل أولادهم:

﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ المشركينَ قَتْلَ أوْلادِهم شُرَكَاؤُهُمْ﴾ زيّن: حسَّن، وشركاؤهم فاعل زيّن، والشركاء هنا شياطينهم أو سدنة آلهتهم، والمعنى: وكما حَسَّنت الشياطين للمشركين تقسيم أرزاق الله بينه وبين الأصنام كذلك حسَّنت لهم

قتل أولادهم. وسُمِّيَت الشياطين شركاء لأنهم أطاعوهم في معصية الله فأشركوهم مع الله في وجوب طاعتهم.

وكان من المشركين من يقتل بناته خشية العار خوفاً منْ أنْ يقعن في الأسر.

ومنهم من كان يقتل أولاده ـ ذكوراً وإناثاً ـ مخافة الفقر.

ومنهم من كان يحلف بالله لئن وُلِدَ له كذا وكذا غلاماً لينحر أحدهم كما فعل عبد المطلب حين نذر ذبح ولده عبد الله والد رسول الله ﷺ. والقرآن قال إن الكثير كان يفعل ذلك، لأن قتل الأولاد لم يكن يفعله جميع القبائل ﴿لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِم دِينَهُم﴾ يردوهم: من الردى وهو الهلاك والموت. واللبس: بمعنى الخلط. أي حَسَّنَت لهم الشياطين قتل أولادهم ليهلكوهم بذلك الفعل الذي أمروهم به وليخلطوا عليهم أمر دينهم ويُدخلوا الشك عليه، وكانوا قد ورثوا الدِّينَ عن إسماعيل عليه السلام وليس في دينه قتل الأولاد بل كان يحرِّم عليهم القتل مطلقاً، ولكن المشركين انحرفوا عنه وأحدثوا ديناً مختلطاً بالأباطيل ﴿وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي لو شاء الله عدم ارتكاب المشركين ذلك لعصمهم منه. هذا النص القرآني لا يفهم منه أن الله أجبر المشركين على هذه الفعلة الشنعاء، فإنه من التناقض أن يُجبِرَ الله أحداً على عمل قبيح ثم يلومه عليه ويؤاخذه به. فالله سبحانه خلق البشر وجعلهم يتميزون بحرية الإرادة والتصرف، وحرية الاختيار، فهو يعنِّفهم ويعاقبهم إذا أساءوا، ويحكم عليهم بالحماقة إذا خرجوا عن طريقه المستقيم، كما يثيبهم على أعمالهم الصالحة ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ فاتركهم يا محمد وما يختلقون من الكذب على الله فإن الله لهم بالمرصاد. وفي هذا من شدة الوعيد لهم ما لا يخفى.

ومن ضلالات المشركين في الأنعام أنهم أباحوا أكل لحم بعضها وحرموا بعضها الآخر، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا هَـٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ والحِجْر في كلام

العرب: الحرام. أي أن المشركين حلّلوا وحرّموا ما شاءوا فجعلوا بعض الأنعام حراماً أكلها، وحرّموا أكل بعض الزروع كذلك ﴿لا يَطْعَمُهَا إلاّ مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِم﴾ أي لا يأكلها إلا من شاءوا وهم الرجال دون النساء ويبيحونها لسدنة الأصنام، وهذا الحكم منهم صادر عن زعمهم لأن الله لم يأمرهم به والزعم هو الكذب ﴿وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهورُهَا﴾ كما أنهم جعلوا بعض الأنعام مما يحرّم عليهم ركوبها أو أن تحمل الأمتعة وهي: البحائر[1]، والسوائب[2]، والوصائل[3]، والحوامي[4] ﴿وَأَنْعَامٌ لا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ وكذلك خصصوا بعض الأنعام بحيث لا يذكرون اسم الله عليها عند الذبح، وإنما يذكرون أسماء أصنامهم، أو لا يذكرون اسم الله عليها في أي شأن من شؤونهم: لا إن ركبوا عليها، ولا إن حلبوها، ولا إن حملوا عليها الأمتعة، ولا يحجون عليها لأن الحج لا يخلو من ذكر الله تعالى: ﴿افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ أي فعلوا ذلك كذباً على الله، لأنهم نسبوا ما كانوا يحرمونه إلى الله وأنه سبحانه هو الذي حرمه، فنفى الله أنه أمرهم بذلك ﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ سيعاقبهم الله بما يختلفون عليه من الكذب، وهنا وعيد لهم وتهديد على أفعالهم هذه.

﴿وَقَالُوا مَا في بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنا﴾ أي وقال أولئك المشركون ما في بطون هذه الأنعام من أجنّة البحائر

---

(١) البحائر: جمع بحيرة وهي الناقة التي تلد خمسة أبطن آخرها ذكر كانوا يشقون أذنها ويتركونها لآلهتهم.

(٢) السوائب: جمع سائبة وهي اسم للناقة التي يتركها صاحبها فلا تنحر لأنها نجت من الحرب أو لأن صاحبها نذرها للأصنام.

(٣) الوصائل: جمع وصيلة وهي اسم للناقة التي تلد أول ما تلد أنثى ثم تثنى بأنثى كانوا يتركونها للأصنام.

(٤) الحوامي: جمع حام وهو اسم للفحل إذا لقح ولد ولده قالوا حمى ظهره فلا يُركب ويترك حتى يموت.

والسوائب إذا ولد منها حيًا فهو خالص أكله للرجال دون النساء ﴿وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾ وإن يكن ما في بطون هذه الأنعام ميتة حين يُولد فحلال أكله للرجال وللنساء أي شركاء في أكله ﴿سَيَجْزِيهِم وَصْفَهُمْ﴾ سيعاقبهم على وصفهم الكذب على الله، بادعائهم أنه تعالى أحل وحرم ما يفعلونه ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ إنه سبحانه حكيم في أفعاله وأقواله وفيما شرعه لهم، عليم بأعمال عباده من خير وشر وسيجزيهم عليها أتم الجزاء.

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِين قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهاً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ سفهاً: السفه هو الطيش ونقصان العقل والجهل في الأمور الدينية والدنيوية. فإن قتل الأولاد هو خسران ما كان يُرجى نفعه عن طريق الولد من الإنس والسرور وكفاية المهمات والمعونة للآباء عندما يكبر الأولاد. فالولد نعمة من الله على الإنسان فإذا سعى في زوالها فقد خسر خسراناً عظيماً في الدنيا واستحق العقاب من الله في الآخرة، كما أن قتل الأولاد يدل على خفّة في العقل وقسوة في القلب، وجهل بأن الله هو الرازق لهم ولأولادهم. وأما قوله تعالى ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فهو الجهل بما ينفع وما يضر وما يحسن وما يقبح ﴿وَحَرَّمُوا ما رَزَقَهُمُ اللَّهُ افتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ وحرّموا على أنفسهم أكل ما أحلّ الله لهم من الأنعام زاعمين أن الله أمرهم بذلك وهذا كذب وافتراء على الله ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ فهم بتحريمهم هذا أخطأوا طريق الحق والصواب وما كانوا مهتدين إلى طريق الرشاد والصواب.



﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

شرح المفردات

أنشأ: خلق.

جنّات: بساتين.

معروشات: مرفوعات على ما يحملها كالكرم والقرع.

وغير معروشات: وهو ما انبسط على وجه الأرض وما قام على ساق واستغنى لقوة ساقه عن التعريش كالنخل وسائر الشجر.

متشابهاً: متقارباً في اللون والطعم.

حصاده: جنيه.

من الأنعام حمولة وفرشاً: أي وخلق لكم من الأنعام ما تحمل الأثقال كالإبل وما يفرش على الأرض للذبح كالغنم.

لا تتبعوا خطوات الشيطان: لا تسلكوا طرقه في التحريم والتحليل.

أزواج: جمع زوج، ويطلق على كل واحد من القرينين الذكر والأنثى ويطلق على مجموعهما والمراد الأول.

نبئوني: أخبروني.

شهداء: حاضرين.

فضل اللّه على عباده وما حلله من الأطعمة

وبعد أن بيّن القرآن ضلال المشركين في تقسيم أرزاق الله بينه وبين أصنامهم وما يفعلونه ظلماً من قتل أولادهم وتحريمهم بعض الأشياء على هواهم بيّن بعد ذلك بأن الله وحده هو الخالق للزروع والأنعام، قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ﴾ معروشات: مرفوعات على ما يحملها من عيدان أو أعمدة كدوالي العنب، والمعنى: هو الله سبحانه خلق بساتين كروم العنب مرفوعات على أعمدة ﴿وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ وهي ما انبسط على وجه الأرض مثل بعض كروم العنب والبطيخ والقرع والخيار التي تُترك بدون عرائش وما قام على ساق كالنخل والزرع والأشجار ﴿وَالنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ﴾ وخلق الله سبحانه النخل والزرع مختلفاً ثمره في الهيئة والطعم، وخصهما القرآن بالذكر لمنافعهما، فإن ثمر النخيل من أفضل الأقوات التي تدّخر وأيسرها تناولاً في السفر، ولا يحتاج إلى طبخ وفيه من المنافع التي لا تُحصى وهو غذاء كامل. أما الزرع وهو النبات الذي يحصل بعد حرث الأرض ووضع بذوره بها كالقمح والشعير والأرزّ فهي التي يقتات منها أكثر البشر ﴿وَالزَّيْتُونَ والرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ وخلق الله سبحانه الزيتون والرمان متشابهة أوراقهما في المنظر وغير متشابه ثمرهما في الطعم،

فالرمان منه الحلو ومنه الحامض ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ كلوا من ثمر ذلك الذي ذُكِرَ ولو قبل نضجه، وقال بعض الفقهاء إنه رخصة للمالك في الأكل منه قبل أداء حق الله تعالى فيه لكن بدون توسع في الأكل ﴿وآتوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ والحصد: هو القطع. أي أخرجوا من هذه الأصناف زكاة أموالكم على المستحقين لها من الفقراء والمساكين عند قطعها وجنيها، وبناء على هذا التفسير قيل إن هذه الآية نزلت بالمدينة المنورة لأن فريضة الزكاة وتحديدها كانت في تلك المدينة.

وقيل المراد بهذا الحق الصدقة المطلقة المستحبّة فَيُعْطي صاحب الزرع منه عند حصاده من حضر من المساكين، إلى أن نُسخت الصدقة بتحديد الزكاة فيها بالعشر فيما سقي بالمطر ونصف العشر فيما سقي بآلة، لأن هذه الآية نزلت بمكة ﴿وَلا تُسْرِفُوا﴾ والإسراف: مجاوزة الاعتدال إلى التبذير أي لا تتجاوزوا الحد بإخراج الصَّدقة للفقراء بحيث لا يبقى لعيالكم شيء، أو لا تتجاوزوا الحد في البخل أو بإنفاقه في المعاصي، فأما بذل بعضه في الخير ونفع الناس فليس من الإسراف ﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفينَ﴾ هنا وعيد وزجر عن الإسراف في كل شيء وكفى بذلك إثماً بجعل المسرف لا يحبه الله.

﴿وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً﴾ أي وخلق لكم من الأنعام وهي الإبل حمولة، أي يُحمل عليها الأمتعة ويُركب عليها. وفرشاً: وهي صغار الإبل والمعز والغنم، وفَرَشَ لغة: بَسَطَ، أي تبسط على الأرض لذبحها، وقيل الفَرْشُ: ما يتخذ مِنْهُ الوبر والصوف والشعر فراشاً يفترشه الناس على الأرض ﴿كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي كلوا من الثمار والزرع والأنعام التي أحلّها الله لكم ﴿وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ﴾ ولا تسلكوا طريق الشيطان في تحريم ما أحلّ الله لكم ﴿إِنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ إن الشيطان ظاهر العداوة لكم حريص على إغوائكم. والشيطان يشمل شياطين الإنس والجن التي توسوس بمخالفة أوامر الله وتشجع على معصيته.

ثم بيّن القرآن بعض ما كان عليه المشركون من ضلالات فيما كانوا يحرمون أكله من الأنعام: ﴿ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ﴾ وثمانية منصوبة بفعل مضمر تقديره: (كلوا)، أي كلوا لحم ثمانية أزواج من الأنعام. ومعنى أزواج: أي أفراد وإنما سمي الفرد زوجاً في هذه الآية لأن كل واحد من الذكر والأنثى زوج بالنسبة إلى الآخر، وكل فرد عند العرب إذا كان معه آخر من جنسه يزاوجه ويحصل منهما النسل يسمى زوجاً، فيقال للذكر زوج وللأنثى زوج كما يطلق لفظ الزوج على مجموعهما وهما الذكر والأنثى وهذا ليس بمراد في الآية. والمراد بقوله تعالى ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ أربعة ذكور من كل من الإبل والبقر والغنم والمعز، وأربعة إناث كذلك منها، خلقها الله جميعها لتتفعوا بها أكلاً وركوباً وحلباً لألبانها والانتفاع بوبرها وصوفها، ولم يحرّم الله شيئاً منها ولا من أولادها. ثم فصّل الله هذه الثمانية بقوله: ﴿مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ والضأن: ذوات الصوف من الغنم، أي من الضأن زوجين اثنين كذلك ذكر وأنثى وهما الكبش والنعجة ﴿وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ ومن المعز زوجين اثنين ذكر وأنثى وهما التيس والعنزة فتلك أربعة من الثمانية ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ استفهام إنكار، أي قل يا محمد لهؤلاء الجهلة الذين حرّموا أكل بعض أصنافهما: هل حرَّم ربكم أكل الذكرين من لحم الضأن والماعز، أم حرَّمَ أكل الأنثيين منهما، فإن كان قد حرَّم الذكرين من الغنم والماعز فجميع الذكور حرام، وإن كان قد حرَّم الأنثيين منهما فجميع الإناث حرام، ولكن المشركين حللوا أكل بعض الذكور والإناث تارة، وحرموا الأكل من بعضها تارة أخرى، ولم يجعلوا الإباحة والتحريم مطّردين، لأن من شأن أحكام الله أن تكون مطّردة في الأشياء المتحدة بالنوع والصفة ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ﴾ أم حرّم الله ما اشتملت عليه أرحام أنثى الضأن وأنثى الماعز[1] ، فإذا كان التحريم بسبب ما

---

(١) هنا إنكار على قول المشركين: ﴿وَقَالوا مَا في بطُون هَذِهِ الأنعام خالِصَةٌ لذكُورنا ومحرَّم عَلَى أزواجنا﴾.

اشتملت عليه أرحام الأنثيين وجب تحريم ما يتوالد منهما من الذكور والإناث معاً لا أن يقتصر التحريم على أحد الصنفين لأن الكل يشتمل عليه الرَّحم ويولد منه ﴿نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وقل لهم يا محمد: أخبروني ـ أيها المشركون ـ عن عِلْمٍ منسوب إلى الله بأنه سبحانه حرَّم ذلك عليكم، وفي هذا تبكيت لهم وإلزام الحجة عليهم لأنه ليس عندهم عِلْمٌ ولا دليل على ذلك.

﴿ومن الإِبِلِ اثْنَيْنِ﴾ أي وخَلَقَ الله لكم من الإبل اثنين ذكراً وأنثى وهما الجمل والناقة ﴿وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ وخلق لكم من البقر اثنين ذكراً وأنثى وهما الثور وأنثاه البقرة وهذه أربعة أزواج أُخر بقية الثمانية ﴿قل ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ﴾ قل لهم يا محمد أكان التحريم بسبب الذكورة في هذين الصنفين أي الإبل والبقر أم كان بسبب الأنوثة فيهما ﴿أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ﴾ كرّر الله هذه الجملة تكذيباً لهم وتهكماً بهم في نسبتهم تحريم ذلك إلى الله ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا﴾ أم: للإنكار، والشهداء هم الحضور المشاهدون للشيء وهم جمع شهيد، والمعنى: أعندكم علم يُؤثر عن أحد من رُسل الله فنبئوني به، أم شاهدتم ربكم فوصاكم بهذا التحريم، وهم لا يدّعون هذا ولا ذاك وإنما يفترون على الله الكذب ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾ أي لا أحد أظلم ممن يكذب على الله فيزعم تحريم ما لم يحرّمه الله ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ليصدّ الناس عن دين الله بجهله وسفهه ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إن الله لا يُرشِدُ إلى الخير من كذّب عليه، ونسب إليه ما لم يشرّعه لعباده، وهنا وعيد لكل من يُدْخِل على دين الله البدع، فيحرّم ويحلّل كما يحلو له.

وهكذا يظهر لنا مدى ما كانت الخرافات والأباطيل سائدة في جزيرة العرب قبل الإسلام، كما يظهر لنا مدى الإصلاح الذي حقّقه الإسلام في كل شأن من شؤون الحياة.

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾.

شرح المفردات

طاعم يَطعمُهُ: آكل يأكله.

دماً مسفوحاً: دماً سائلاً مهراقاً.

رجس: نجس خبيث والمراد أنه حرام.

فِسقاً: خروجاً عما أحله الله.

أُهِلَّ لغير الله به: ذُكِرَ اسم غير الله عليه عند ذبحه.

غير باغ: غير طالب لها إلا للضرورة ولا متعدياً حدود الضرورة.

ولا عاد: ولا متجاوز ما يسد الرمق والضرورة.

كل ذي ظفر: وهو ما ليس مشقوق الأصابع من بهيمة أو طير ويدخل فيه الإبل والبط.

شحومها: جمع شحم وهو الدهن.

إلاَّ ما حملت ظهورهما: إلا ما وجد من الشحم فوق ظهورهما.

الحوايا: الأمعاء (المصارين). .

أو ما اختلط بعظم: وهو شحم الإلية المتصل بالعصعص في الضأن.

ببغيهم: بسبب ظلمهم.

بأسه: عذابه.

المحرّمات من المآكل

وبعد أن بيّن القرآن فساد المشركين وضلالاتهم في التحليل والتحريم، وافترائهم على الله في ذلك، بيّن بعد ذلك ما حرّم الله عليهم بقوله:

﴿قُلْ لا أَجِدُ في ما أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يحلّلون ويحرّمون من عند أنفسهم: إني لا أجد فيما أوحاه الله إليّ شيئاً محرماً على آكل يأكله **﴿إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً﴾** إلاّ أن يكون الحيوان المباح أكله مات ميتة طبيعية أو بحادث بغير ذبح فلا يجوز أكله.

والدم المسفوح هو ما سال من الحيوان عند ذبحه فقد حرّم الإسلام تناوله، أما الدم غير المسفوح فهو معفو عنه كالدم الذي يبقى في العروق بعد الذبح كذلك يُعفى عن الكبد والطحال فإنهما دمان غير سائلين، كما يُعْفَى عن الدم الذي يتلطخ به اللحم. والدم ضار بصحة الإنسان إذا استعمل غذاء، فالتحليل الطبي أثبت أن الدم يحوي كمية كبيرة من «حمض البوليك» Uric Acid وهو مادة تضرّ بالصحة إذا استعملت غذاء.

وقد يكون في الدم جراثيم وفيروسات بعض الأمراض المعدية، فإذا تناوله الإنسان سبّب له الضرر الكبير والخطر الأكيد. والغريب أن بعض الشعوب الأوروبية التي تدعي الرقيّ تجعل الدم من الأغذية التي تتناولها بعد مزجها بالطحين وطهيها وهي غافلة عن مضارّها في الجسم.

﴿أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ كما حرَّم الله أكل لحم الخنزير فإنه نجس خبيث وقذر، وكل نجس يحرم أكله. وقد حرم الله أكل الخنزير في الديانات السماوية ومنها اليهودية وكان المفروض أن يتبع النصارى اليهود في تحريمه لأنهم مكلّفون باتباع قوانين العهد القديم ولكنهم لأمر ما خالفوهم وأباحوا أكل لحم الخنزير، فالخنزير يعيش في جسمه عدد كبير من أنواع الطفيليات كما يصاب بأمراض شتى، وهذه

الطفيليات والأمراض تنتقل إلى جسم الإنسان إذا ما أكل من لحمه وتصيبه بأمراض خطيرة يمكن أن تُودي بحياته.

فمن أشد الأمراض التي تصيب الخنزير: كوليرا الخنزير أو حمّى الخنزير Hog Cholera وهو مرض معدٍ يصيب كافة الخنازير على اختلاف أعمارها وسلالاتها ومنها أيضاً: «الحمى المتموّجة Brucellosis» ومن الطفيليات الشائعة في لحم الخنزير داء الترخينة Trichinella Spiralis وهي نوع من الديدان السلكية المدورة تنتقل إلى الإنسان عند تناوله لحم الخنزير، وداء الترخينة من أشدّ الأمراض تأثيراً على الإنسان. ومن الطفيليات أيضاً: الدودة السوطية التي تلتصق بجدار المصران الأعور، ومنها دودة الكلية التي تؤذي الكبد والكليتين وأعضاء أخرى[1].

ولحم الخنزير يحتوي على دهن أكثر من ضعفي دهن اللحوم العادية. وبذلك يجد آكلو لحم الخنزير أن كمية الدهن ترسب في أجسامهم. وقد وجد العلماء أيضاً أن (الكولسترول) هو فضلة من فضلات الدهن تسيل في الدم بنسبة خاصة، وهذا الكولسترول هو الذي يُحدث تصلباً في الشرايين وأمراض القلب.

﴿أو فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أو يكون المطعوم لحم حيوان ذُكِرَ عليه عند ذبحه اسم غير الله تعالى، فإنه يكون عند ذلك خروجاً عن العقيدة والشريعة. والإهلال رفع الصوت، فقد كان الوثنيون قبل الإسلام إذا ذبحوا ذبيحة رفعوا أصواتهم بقولهم: باسم اللات أو العزّى أو مناة وهي أسماء أصنام لهم كانوا يعبدونها، فالحكمة من تحريم هذه اللحوم أن فيها مشاركة للوثنيين ومشايعة لهم، فالإسلام يريد أن يحمي أهله من كل مظاهر الإشراك بالله لأن الذبائح لا تكون إلا باسم الله.

---

(١) ومن أراد الاستزادة في معرفة أضرار لحم الخنزير فليرجع إلى كتابنا (الخطايا في نظر الإسلام) وقد نقلنا ذلك عن دائرة المعارف البريطانية طبعة ١٩٧٠ المجلد السابع عشر تحت مادة Pig.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ فمن أصابته الضرورة الداعية إلى أكل الميتة أو لحم الخنزير بأن أشرف على الموت من الجوع ولم يجد طعاماً يأكله سوى ذلك فيحل له الأكل بقدر ما يدفع عنه الهلاك ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي غير طالب للمحرّم وهو يجد غيره، أو غير طالب له للذّته أو غير ظالم على مضطر مثله ﴿وَلاَ عَادٍ﴾ ولا متجاوز قدر الضرورة وهو الذي يسدّ الرمق ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي لا يؤاخذ ربك المضطر للأكل من ذلك لأنه سبحانه رحيم بعباده غفور لزلاّت المضطرين.

﴿وعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ هادوا: هم اليهود، فقد حرَّم الله عليهم أكل كل ذي ظفر وهو ما ليس بمنفرج الأصابع من البهائم والطير مثل الإبل والنعام والإوز والبط، وقيل: كل ذي مخلب من الطير وذي حافر من الدواب: فهناك حيوانات نجد تشقق أصابعها ظاهراً والأصابع منفصلة ومنفرجة بعضها عن بعض فهذه ليست حراماً عليهم.

﴿وَمِنَ البَقَرِ والغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِم شُحُومَهُمَا﴾ والشحوم: جمع شحم وهو المادة الدهنية التي تكون مع اللحم في جسد الحيوان، فقد أباح الله لليهود أكل لحوم البقر والغنم وحرّم عليهم شحومهما كشحوم الكليتين ﴿إلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا﴾ إلا الشحوم العالقة بظهور البقر والغنم فأكلها ليس محرمًا عليهم ﴿أَوِ الحَوَايَا﴾ وكذلك الشحوم التي تغطي الأمعاء فهي أيضاً ليست محرّمة عليهم ﴿أو مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ وكذلك الشحوم التي تكون متصلة بعظم، كشحم الإلية فإنها متصلة بالسلسلة الفقرية فهي أيضاً ليست محرّمة عليهم.

﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِم﴾ أي ذلك التحريم كان عقاباً لهم بسبب ظلمهم وتعدّيهم حدود الله ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُون﴾ يخبرنا الله سبحانه بأنه صادق في كل ما بيّنه فيما أحلّ وحرّم بالنسبة لليهود.

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ فإن كذّبك يا محمد اليهود والمشركون فيما بيّنته لهم من الحلال والحرام بشأن الأطعمة فقل إن ربكم الذي خلقكم وتعهّدكم بالتربية والإرشاد هو صاحب رحمة واسعة حيث لم يُعاجلكم بالعقوبة **﴿ولا يُرَدُّ بأْسُهُ عَنِ القَوْمِ المجرمين﴾** أي لا تطمعوا بسعة رحمة الله فإنه مع سعة رحمته يعاقب المجرمين، ولا يقدر أحد دفع عقابه عنهم طالما أنهم مستمرون على اقتراف المنكرات.

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

شرح المفردات

بأسنا: عذابنا.

تخرصون: تكذبون.

الحجّة البالغة: بإرسال الرسل وإنزال الكتب الإلهية عليهم.

هَلُمَّ شهداءكم: أحضروا شهداءكم.

وهم بربهم يعدلون: وهم يسوّون به غيره في العبادة.

المشركون واحتجاجهم بمشيئة الله

ثم ينتقل القرآن إلى بيان جانب فاسد خاطىء من أحوال المشركين فهم يخطئون ثم يحاولون إلقاء تبعة أخطائهم على غيرهم. والمشركون الذين استمعوا إلى صوت الحق صمّوا آذانهم عن القبول به وزعموا أن ضلالهم هو أثر من مشيئة الله وهم غير أحرار في ترك ما هم عليه من ضلال، وهذا ما حكاه القرآن عنهم بقوله: ﴿سَيَقُولُ الَّذِين أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا﴾ إنهم يقولون: لو شاء الله ألاّ نجعل له شركاء ما أشركنا به، وما أشرك آباؤنا من قبل، وحيث إنه لم يمنعنا من الشرك به ثبت أنه مريد له ﴿وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيءٍ﴾ أي لو شاء الله ألا نحرّم شيئاً مما حرّمناه على أنفسنا لما حدث منا هذا.

ومحصّل هذه الشبهة عندهم أن الله شاء هذا الشرك منهم، وشاء أن يحرّموا ما شاءوا من الأنعام، بل شاء أيضاً أن يعصوا الله ويقترفوا ما شاءوا من المنكرات.

هذا هو مذهب الجبرية الذين يزعمون بأنهم مجبورون على أفعالهم من قِبَلِ الله وأنهم ليس لهم حرية ولا اختيار فيما يفعلون. ونَردُّ عليهم: بأن الإنسان لو كان مجبراً على ما يفعل لانتفى الثواب والعقاب من الله يوم القيامة، وما كان من داعٍ لإرسال الله للرسل مبشرين ومنذرين.

وقد ذَكَرَ القرآن في موضع آخر من هذه السورة مزاعم الذين يدّعون أن أعمالهم السيئة هي بأمر الله: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

فالله سبحانه أودع في الإنسان القدرة على التمييز بين الخير والشر، وجعله مختاراً فيما يفعله، قال الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْۚ﴾ [الكهف: ٢٩].

هذا وإن حقيقة الدِّين وما فيه من التكاليف والأوامر والنواهي لا تتحقق مع استبعاد إرادة الإنسان واختياره، وإضلال الله لشخص: معناه أن هذا الشخص آثر الغيّ على الرشاد فأقرّه الله على مراده كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وادّعاء المشركين بأن إشراكهم بالله هو أثر من مشيئة الله نقضه القرآن في تتمة الآية التي نحن بصددها ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم﴾ أي كما كذّب هؤلاء المشركون في زعمهم بأن الله شاء لهم الشرك، كذلك كذّب الذين من قبلهم رسلهم واستمروا على ذلك ﴿حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ أي حتى نزل بهم عذاب الله، وهذا يدل على الوعيد لمن يذهب إلى هذا المذهب في اعتقاده هذا، ثم تابع الله قوله ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُم مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي قل لهم يا محمد على سبيل الإنكار: هل عندكم من حجة فيها من العلم واليقين تؤيد مزاعمكم بأنكم على حق فتقدموها لنا ﴿إن تَتَّبعونَ إلاَّ الظَّنَّ﴾ أي إنَّ سلوككم قائم على الظنّ، والظَّنُّ لا يُغنِي مِنَ الحقّ شيئاً ﴿وَإِنْ أَنْتُم إلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ وما أنتم إلاّ تكذبون وتقدّرون تقديراً خاطئاً في ما ذهبتم إليه.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الحُجَّةُ البَالِغَةُ﴾ قل لهم يا محمد: الله وحده له الحجة البيّنة الواضحة التي بلغت نهاية القوة وقد لزمتكم بإرسال الرسل إليكم وإنزال الكتب عليكم من الله تعالى ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُم أجمعينَ﴾ أي لو شاء الله هداية الناس جميعاً لهداهم، على معنى أنه يخلقهم خلقاً آخر على طبيعة أخرى مثل طبيعة الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يُؤمرون، ولكن الإنسان إذ ذاك لا يكون هذا المخلوق الذي أراد الله أن يكون صاحب اختيار في أفعاله وأن تكون سعادته أو شقاؤه بإرادته.

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنّ اللَّهَ حرّمَ هَذَا﴾ هلمّ: هي في اللغة اسم

فعل أمر بمعنى أقْبِلْ، أي أحضروا شهداءكم الذين يخبرون عن علم أن الله حرّم عليكم هذا الذي زعمتم تحريمه. فالمطلوب منهم إحضار جماعة من أهل العلم الذين تتلقى عنهم الأمم الأحكام الدينية بالأدلة الصحيحة، أي أحضروهم لنا ليدلوا بما عندهم من الحجة بأن الله حَرَّم عليكم ما تزعمون تحريمه ﴿فَإِن شَهِدُوا فلا تَشْهَد مَعَهُم﴾ فإن فُرِضَ بأن أحضروا شهداء يشهدون أن الله حرّم عليهم ما يزعمون من المحرّمات فلا تصدقهم ولا تسلّم لهم ما شهدوا به بعد ما عرفت من افتراءاتهم على الله ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي ولا تتّبع يا محمد أهواء هؤلاء الناس الذين كذّبوا بآيات القرآن التي أنزلها الله عليك ﴿والَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ﴾ وهم مع تكذيبهم بآيات الله ينكرون الآخرة والبعث والجزاء على الأعمال ﴿وَهُم بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ﴾ وهم إضافة إلى ذلك يساوون الأصنام بالله ويتخذونها شركاء لله، ويعبدونها من دونه.



﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ

ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

شرح المفردات

تعالوا: أقبلوا واحضروا.

أتل: أقرأ.

من إملاق: من فقر.

الفواحش: ما عظم قبحه من المعاصي كالزنى.

ما ظهر منها وما بطن: علانيتها وسرّها.

وصّاكم به: أمركم وألزمكم به.

حتى يبلغ أشده: أي يبلغ قوّته البدنية والعقلية ويحسن التصرف بما له.

بالقسط: بالعدل.

وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قُربى: وإذا قلتم قولاً في حكم أو شهادة فقولوا الحق ولو كان المقول له أو عليه من ذوي قرابتكم.

لعلّكم تذكّرون: لكي تتعظوا.

هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه: هذا منهاجي الذي لا عوج فيه فاسلكوه.

الوصايا العشر في القرآن

وبعد أن بيّن القرآن حجّة الله البالغة على المشركين الذين حرّموا على أنفسهم ما لم يحرّمه الله وادّعوا بأن الله أراد لهم الشرك والتحريم، بيّن الله بعد ذلك في الآيات التالية الثلاث، الأمور والأشياء التي حرّمها عليهم مع بيان الفضائل التي أمرهم باتّباعها.

وقد اشتهرت هذه الآيات الثلاث بأنها تحوي الوصايا العشر في القرآن، وقد قال ابن عباس عنها: هذه الآيات المحكمات التي ذكرها الله تعالى في سورة الأنعام أجمعت عليها شرائع الخَلْق ولم تُنسخ قط في ملّة، وقد قيل:

إنها العشر كلمات المنزلة على موسى عليه السلام[1]. قال الله تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُم عَلَيْكُمْ﴾ يأمر الله رسوله محمداً بأن يقول لقومه: تعالَوْا إليَّ، وأقبلوا عليَّ لأقْرَأ لكم ما حرّم ربكم عليكم فيما أوحاه إليَّ. وكلمة (تعال) في أصل معناها يقولها من كان في مكان عالٍ لمن هو أسفل منه بأن يعلو ويصعد إليه «كما تتضمن إرادة تخليص المخاطبين ورفعهم من انحطاط هم فيه، إلى علوٍّ يُراد لهم ويُدْعَوْنَ إليه، وتدل في الوقت نفسه على طلب المتكلم إقبالهم عليه، وانضمامهم تحت لوائه، فتتّحد وجهتهم ولا تذهب بهم الأهواء والسبل في مناحي الغيّ والفساد»[2].

الوصية الأولى: ترك الشرك بالله

قال الله تعالى: ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شيئاً﴾ أي لا تجعلوا أحداً أو شيئاً من الأشياء شريكاً لله في العبادة له ما لله من حق التحليل والتحريم واللجوء إليه بالدعاء والاستعانة به، سواء أكان ذلك الشيء مظهراً من المظاهر الطبيعية كالشمس والقمر والنجوم، أو كان عظيم القدر من الأنبياء والصالحين والملائكة، أو كان من الأصنام التي يتوجّه إليها الكفّار بالعبادة زاعمين أنها تشفع لهم وتقربهم إلى الله.

كما أن من الشرك بالله انقياد الإنسان لأهواء نفسه، فلا يهوى شيئاً إلا اتّبعه مُعرضاً عن هدى الله، وهذا ما ذكره القرآن: ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

---

(١) تفسير القرطبي.
(٢) تفسير القرآن للشيخ محمود شلتوت.

والشرك بالله هو وليد الجهل والوهم فهو بجانب مناقضته للعقل والمنطق فإنه يجعل الإنسان تحت تأثير الخرافات والأساطير التي تهدم كيانه وتجعله في حيرة لا يَجِد السبيل إلى الخلاص منها بجانب ما يقوم به من شعائر وتكاليف ترهقه ولا يجني منها نفعاً. وقد وصف القرآن حال المشركين وما هم عليه من اضطراب بهذه الصورة البليغة ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

الوصية الثانية: البرّ بالوالدين

قال تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي أحسنوا إليهما إحساناً كاملاً لا إساءة معه، ولم تُذكر هذه الوصية بأسلوب النهي عن الإساءة إليهما سموًّا بالإنسان عن أن تُظَنَّ به الإساءة إلى الوالدين، وكأن الإساءة إليهما ليس من شأنها أن تقع حتى يحتاج إلى النهي عنها.

وقد شدّد الإسلام على الإحسان إلى الوالدَيْن بما لا مزيد عليه، ويكفي دليلاً على أهمية ذَلِكَ أن الوصية بالبرّ بالوالدين كانت دائماً مقرونة بعبادة الله وشكره. جاء في القرآن ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وجاء في القرآن أيضاً ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، فكما أن الإنسان عليه واجب الشكر لخالقه لما أنعم عليه مِنَ النِّعَم التي لا تُحصى كذلك على الإنسان واجب الشكر لوالديه لما لهما من الفضل العظيم عليه في تنشئته وتربيته والإنفاق عليه وحفظه من المهالك ورعايته من صغره حتى يبلغ أشده.

الوصية الثالثة: عدم قتل الأولاد

قال تعالى: ﴿ولا تَقْتُلوا أولادكُم مِنْ إمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإيَّاهُمْ﴾ الإملاق: الفقر وقد كان بعض العرب في الجاهلية يدفنون أبناءهم وهم أحياء خشية الفقر، كما كانوا يئدون بناتهم خشية العار فبيّن القرآن فساد ذلك بقوله ﴿نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإيَّاهُمْ﴾ فإذا كان الله قد كفل رزق الوالد فهو أيضاً كفل رزق أولاده.

ولا يوجد إنسان ذو فطرة سليمة يرضى بقتل ولده، لأنه إن فعل ذلك كان أحط درجة من الوحوش الكاسرة، ودل ذلك على انعدام الرحمة في قلبه.

الوصية الرابعة: الابتعاد عن الفواحش

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْها وَمَا بَطَنَ﴾ والفواحش: جمع فحشاء أو فاحشة، والفاحشة هي كل ما اشْتَدَّ قُبحه من الذنوب والمعاصي وكثيراً ما تَرِدُ الفاحشة في القرآن بمعنى الزنا. والفواحش هي كل ما حرّمه الله مما كان ضارًّا بالأفراد والجماعات في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

فالله سبحانه ينهى عن الاقتراب من المحرَّمات كلها فضلاً عن الوقوع فيها سواء أكانت في السرّ أو في العلانية. وتأمّل سرّ قوله تعالى: ﴿ولا تَقْرَبُوا الفَوَاحِشَ﴾ فهو مبالغة في الزجر عنها والاحتياط من الوقوع فيها لأن القرب منها يؤدي إلى مباشرتها. فالذي يرتاد أماكن اللهو والعربدة (الكباريهات) لا يأمن من أن يقع في المحظور بتأثير ما يشاهده من الإثارة، والذي يجالس شاربي الخمر يؤدي به الحال إلى مسايرتهم وشرب الخمر معهم، والذي يختلي بالمرأة الأجنبية يمكن أن يؤدي به ذلك إلى ما لا تُحمد عقباه.

الوصية الخامسة: النهي عن قتل النفس

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ التي حَرَّمَ اللَّهُ إلاَّ بِالْحَقِّ﴾ حرّم الله قتل النفس الإنسانية مطلقاً لا فرق بين مسلم وذميّ ومعاهد لأن لهؤلاء مع المسلمين عهداً يجب الوفاء به. وأهل الذمّة هم المواطنون من اليهود والنصارى لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين متى كان لهم عقد الذمة. وقد روي عن النبي ﷺ قوله: «من قتل مُعاهِداً لم يَرَحْ رائحة الجنة وإنّ ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاماً»(١) وروي عن النبي ﷺ قوله: «من قتل نفساً معاهدة بغير حلِّها حرّم الله عليه الجنة»(٢).

وحُرمة قتل النفس البشرية قديمة في الشرائع السماوية، وإنها شَرْعٌ عامّ لم تُخَصّ به أمة دون أمة ولا جيل دون جيل، فالقتل عن عَمد هو من كبائر الذّنوب وأعظم الجرائم عند الله، فقد جاء في القرآن عما كتبه الله على بني إسرائيل: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

وبيّن القرآن إثم القتل عن عَمد عند الله ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

هذا وقد دعا القرآن إلى قتل القاتل الذي يقتل عن عمد، وقتل من يعتدي على المسلمين ويغزو ديارهم.

كما وردت في السُّنّة النبوية الأسباب التي تستوجب عقوبة القتل وهي قول النبي ﷺ: «لا يحلّ دم امرىءٍ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيّب الزاني، والنفس بالنفس،

---

(١) أخرجه ابن ماجه.
(٢) أخرجه النسائي وأبو داود.

والتاركُ لِدِينه المفارقُ للجماعة»[١]، فالذي يزني بعد أن سبق له الزواج يُقتَلُ شرعاً، والقاتل لغيره عمداً يُقتل، والتارك لدينه، أي الذي ارتدّ بعد أن دخل في الإسلام يُقتل، لأنه خيانة لمعتقده، وهذا يشبه ما تفعله الأمم المتحضرة التي تنصّ على القتل جزاء الخيانة الوطنية ﴿ذَٰلِكُم وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ﴾ أي ذلك الذي تقدّم ذكره من الوصايا الخمس أمركم الله بها لعلّكم تستعملون عقولكم فتدركوا المصالح والمنافع التي من أجلها طلبها الله منكم فهي التي تحفظ النفس الإنسانية من الهلاك ومن كل الأضرار الفادحة التي يمكن أن تصيبها.

الوصية السادسة: حفظ مال اليتيم

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ نهى الله عن سوء التصرف بمال اليتيم، وقد جاء النص القرآني بعبارة بليغة الدلالة على ذلك فنهى عن الاقتراب من مال اليتيم فضلاً عن أكله إلا في الحالات التي تكون أحسن لليتيم بما فيه المصلحة له ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أي حتى يدرك سن البلوغ ويتحقق رُشده وهو أن يُحسن التصرّف بما له سالكاً مسلك العقلاء لا مسلك أهل السفه والتبذير، وقد اختلف العلماء في السن التي يبلغ فيها اليتيم رُشده فقال أبو حنيفة: هي خمس وعشرون سنة، وقيل هي أن يبلغ ثماني عشرة سنة، وقيل: هي أن يبلغ خمس عشرة سنة إلى ثلاثين.

هذا والمطلوب من أولياء اليتامى أن يثمّروا أموالهم وأن يطعموهم من ثمراتها لا من أصلها، ولهم نظير ذلك أن يأخذوا أجرهم على ما بذلوا من جهد بالمعروف دون زيادة وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ٦].

---

(١) أخرجه الشيخان.

وأكل مال اليتيم بغير حقٍّ هو من كبائر الإثم، جاء في القرآن: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠] كما أوصى رسول الله ﷺ باليتيم فقال: «خير بَيْتٍ في المسْلِمين بَيْتٌ فيه يتيمٌ يُحْسَنُ إلَيهِ، وشرُّ بيتٍ في المسلمين بَيتٌ فيه يتيمٌ يُساءُ إليه»(١).

الوصية السابعة: الوفاء بالكيل والميزان

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أمر الله سبحانه بإيفاء الكيل والوزن بالعدل بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان ولا بخس، هذا وإن الدقة في الكيل والميزان التي تحقق العدل المطلق قد لا تدخل تحت كسب الإنسان وقدرته لذا رَفَعَ الله الحرج في ذلك بقوله: ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾ فإيفاء الكيل والميزان مطلوبان بقدر الاستطاعة، فلا يُكلِّف الله البائع أن يعطي الشاري أكثر من الحق الذي له، ولم يكلفه الزيادة لأن الزيادة تضيق نفسه بها، ولم يُلْزِمِ الشاري الرّضا بأقل من حقه لما في النقصان من ضيق نفسه بها، بل أمر كلاً من البائع والمشتري بإيفاء الحق لصاحبه بدون زيادة أو نقصان وللبائع أن يزيد ما يشاء.

الوصية الثامنة: العدل في القول

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُم فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ أي وإذا صدر منكم قول في قضاء أو شهادة أو مشورة أو إرشاد فالتزموا العدل في أقوالكم دون محاباة أو خوف من أحد ولو كان المحكوم له أو عليه أقرب الناس إليكم فيجب أن يكون الإنصاف رائدنا فيما ننطق به دُون مُحاباةٍ لأَحَدٍ، أما أن نَذُمَّ مَنْ نَكْرَه، ونمدح مَنْ نُحِب بدون حق، ونرائي من نخاف فهذا لا يجوز، ولكل منا أقرباء وأصدقاء فليس من العدل أن نميل إليهم على حساب الحق.

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

وقد حدّد الله حدود العدل بهذه الآية التالية البليغة التي ترتقي إلى أسمى مراتب السموّ والعدالة المطلقة بحيث لا نرى لها مثيلاً في كل الشرائع، قال الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ[1] شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] كما أمر الله بمراعاة قواعد العدل حتى مع الأعداء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ[2] عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

الوصية التاسعة: الوفاء بعهد الله

قال الله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أي التزموا الوفاء بأوامر الله ونواهيه، فكل ما وصّى الله به شَرَعَهُ للناس من الأحكام فهو من العهد مع الله يجب الوفاء به، وما يلتزمه الإنسان مما يعاهد به ربه عليه من النذور والصدقات والعمل الصالح يجب الوفاء به.

والوفاء بعهد الله هو الذي أخذه الله سبحانه على الخلائق جميعاً أن يعبدوه وحده ولا يشركوا به شيئاً، قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦١].

ومن العهود التي لها صلة بعهد الله ما يتفق عليه الناس في معاملاتهم المختلفة وما يلتزمون به من عقود ومعاهدات ومواثيق فهذه يجب الوفاء بها، لأن نقضها من الآثام التي نهى الله عنها. ثم عقّب الله على هذه الوصايا الأخيرة بقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُمْ

---

(١) كونوا قوّامين بالقسط: كونوا مبالغين في القيام بالعدل.

(٢) ولا يجرمنّكم شنآن قوم: ولا يحملنّكم بغضكم لقوم.

بِهِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ أي ما ذُكِرَ من الوصايا المتقدمة أمركم الله بها لعلّكم تتعظون بما تحتويه من الفوائد في الدنيا والسعادة في الآخرة فاعملوا بها واحرصوا على أدائها.

الوصية العاشرة: اتباع صراط الله

قال الله تعالى: ﴿وأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ﴾ أي وما تقدم من هذه الوصايا هو طريق الله المستقيم الذي لا عوج فيه وهو دين الإسلام فاتبعوا ما أمر به واجتنبوا ما نهى عنه ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُل فَتَفَرَّقَ بِكُم عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي ولا تتبعوا الطرق المختلفة التي تغاير هذا الطريق من الملل المختلفة وسائر أهل البدع والأهواء الذين أضافوا إلى دين الله ما لم يأذن به فتفرّقكم وتبعدكم عن دينه الحق والوقوع في الضلالات. هذا وقد ذكرت الآية سبيل الله بصيغة المفرد ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً﴾ وذكرت السبل الأخرى بصيغة الجمع ﴿وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ لأن سبيل الله هو الحق، والحق واحد لا يتعدد، أما الباطل فمتعدد وطرقه ملتوية مختلفة ﴿ذَلِكُم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي ذلكم ما وصاكم به ربكم من اتباع طريقه المستقيم والابتعاد عن سبل الضلالات، أمركم بذلك ليعدّكم ويهيئكم إلى اتقاء كل ما يشقيكم في دنياكم وآخرتكم.

رُوِيَ عن ابن مسعود رضي الله عنهما قال: «خطّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا ثم قال: هذا سبيل الله، ثم خطّ خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن شماله ثم قال هذه سُبُلٌ على كل سبيل منها شيطان يدعو الناس إليه، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه. .﴾ الآية[١].

(١) أخرجه ابن ماجه.

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ .

شرح المفردات

تماماً على الذي أحسن: إتماماً للنعمة على كل من أحسن القيام بالتوراة.

دراستهم: قراءة كتبهم.

وصدف عنها: أعرض عنها، أو صرف الناس عنها.

ينظرون: ينتظرون.

كانوا شِيَعاً: فِرَقاً وأحزاباً في الضلالة.

ينبّئهم: يخبرهم.

إنزال الله لكتبه هداية للناس

وبعد أن ذكر القرآن الوصايا العشر التي أوصى الله بها عباده أخبر عن الغاية من إنزال التوراة على موسى مبيّناً بعد ذلك مكانة القرآن وما يحتويه من هداية ورحمة للخلق، قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي قل لهم يا محمد إن الله أعطى موسى التوراة قبل نزول القرآن ﴿تَمَاماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ لإتمام النعمة والكرامة على كل من أحسن في اتباعها والاهتداء بها، أو إتماماً للنعمة على موسى الذي أحسن في تبليغ التوراة والقيام بأوامر الله واجتناب نواهيه ﴿وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شيءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ وفي التوراة تفصيل لكل ما يحتاج إليه قوم موسى من أحكام الدين وإرشاد إلى طرق الخير، وهدى من الضلالة، ورحمة من الله لمن اتبعها ﴿لَعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِم يُؤْمِنُونَ﴾ لعلّ بني إسرائيل يؤمنون بالبعث ويُصَدِّقون بالثواب والعقاب فيرتدعون عما هم عليه من الكفر والمعاصي.

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ الكتاب هنا المراد به القرآن، أي وكما أن التوراة التي أنزلها الله على موسى فيها هداية ورحمة كذلك هذا القرآن هو كتاب كثير الخير والنفع فاعملوا بما فيه من الأحكام ﴿وَاتَّقُوا لَعَلَّكُم تُرْحَمُونَ﴾ واحذروا مخالفة ما جاء فيه من الأوامر والنواهي رجاء أن يرحمكم الله فتنجوا من عذابه وأليم عقابه.

﴿أن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ أي أنزلنا عليكم القرآن ـ لئلاّ تقولوا يا معشر المشركين معتذرين يوم القيامة: إنما أُنزل ذلك الكتاب ـ أي التوراة والإنجيل ـ على طائفتين من قبلنا وهما اليهود والنصارى ﴿وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِم لَغَافِلِينَ﴾ وإننا كنا عن مطالعة التوراة والإنجيل لغافلين عما جاء فيهما لأنهما ليسا بلغتنا، والمراد إثبات الحجة عليهم وقطع أعذارهم حيث نزل القرآن عربيًّا بلغتهم.

﴿أو تَقُولوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ أو لئلا تقولوا ـ أيها المشركون ـ لو أن الله أَنزل علينا كتاباً كما أُنزل على اليهود والنصارى لكنا أشد استقامة على طريق الحق وأكثر اتباعاً للكتاب منهم وأحسن عملاً بما فيه ﴿فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُم وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ فقد جاءكم هذا القرآن وفيه بيان وحجة واضحة من ربكم وإرشاد إلى طريق الحق ورحمة لمن عمل به واتبعه ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ[1] عنها﴾ أي لا أحد أشدُّ ظلماً وعدواناً ممن كذَّب بآيات القرآن وأعرض عن هديها أو صرف الناس عن اتباعها فجمع بين الضلال والإضلال ﴿سَنَجْزِي الَّذِين يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ العَذَابِ﴾ أي سيجازي الله بأشد العذاب الذين يعرضون عن آيات القرآن ولا يتدبّرونها ولا يتعرفون على حقيقة ما جاءت به من أدلة على وحدانية الله وعلى صدق ما جاءهم به محمد ﷺ من عند ربهم ﴿بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ أي يفعل الله ذلك بهم جزاء إعراضهم عن آيات الله ومنع غيرهم من اتباع أحكامها وهديها.

﴿هَلْ يَنْظُرونَ إلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الملائكةُ﴾ ينظرون: بمعنى ينتظرون، أي هل ينتظر هؤلاء المشركون أن تأتيهم الملائكة لقبض أرواحهم أو تأتيهم بالعذاب ﴿أو يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ أو يأتي أمر ربك بإهلاكهم ﴿أو يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ أي يأتي بعض العلامات على قرب الساعة، والساعة هي القيامة. وقد قال جمهور المفسرين: هي طلوع الشمس من مغربها[2] ﴿يَوْم يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً

---

(١) صدف: أعرض هُو، ويطلق بمعنى صرف غيره كما في القاموس.

(٢) جاء في الصحيح عن رسول الله أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل ثم قرأ الآية: ﴿يَوْم يأتي بَعض آيات ربِّك لا ينفَعُ نفساً إيمانها لم تكن آمنت مِنْ قَبْلُ أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ أخرجه البخاري ومسلم.

إيمانُـهَـا لَمْ تَـكُنْ آمَنَـتْ مِـنْ قَـبْـلُ﴾ أي يوم يأتي بعض آيات ربك الموجبة للإيمان الاضطراري كطلوع الشمس من مغربها فلا يُقبل الإيمان حينئذ من نفس كافرة إذا لم تكن آمنت قبل ظهورها ﴿أَوْ كَـسَـبَـتْ فـي إيـمانِـهَـا خَـيْـراً﴾ ولا ينفع العمل الصالح نفساً مؤمنة تعمله عند ظهور هذه العلامة، لأن وقت التكليف الاختياري قد فات، إذ لا ينفع الإيمان إلا مع العمل الصالح قبل ظهور علامات يوم القيامة ﴿قُـلِ انْـتَـظِـرُوا إِنَّـا مُـنْـتَـظِرُونَ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الكافرين انتظروا ما تتوقعون إتيانه ووقوعه بنا من الخسران والهزيمة إنا منتظرون ما وعدَنا ربنا من النصر وما أوعدكم ربكم من الهزيمة، وفي هذا النص القرآني تهديد ووعيد للمشركين بسوء المصير.

﴿إِنَّ الَّـذِيـنَ فَـرَّقُـوا دِيـنَـهُـمْ وَكَـانُـوا شِـيَـعـاً﴾ أي إن الذين فرّقوا الدين الحق بالعقائد الزائفة والتشريعات الباطلة وصاروا بذلك أحزاباً وفِرَقاً تتبع كل فرقة إماماً لها ويتعصب أفرادها لها. هذه الآية قيل إنها نزلت في اليهود والنصارى إذ فرّقوا دين إبراهيم وموسى وعيسى فجعلوه أدياناً مختلفة ومذاهب شتى، وقيل: إن الآية تنطبق على أهل البِدَع والفرق الإسلامية التي مزَّقت وحدة الإسلام بما استحدثوا من النِّحَل والمذاهب، والآية تشمل الفئتين من المسلمين وأهل الكتاب. هؤلاء الذين فرقوا دينهم ﴿لَـسْـتَ مِـنْـهُـمْ فـي شَـيْءٍ﴾ أي أنت يا محمد بريء منهم ومن مذاهبهم الباطلة ومن فِرَقِهم الضالّة. وفي هذه الآية تحذير شديد وإنذار لكل من يسعى إلى التفرقة بين المسلمين والعمل على هدم وحدتهم وإثارة البغضاء فيما بينهم ﴿إِنَّـمَـا أَمْـرُهُـم إِلـى اللَّـهِ ثُـمَّ يُـنَـبِّـئُـهُـم بِـمَـا كَـانُـوا يَـفْـعَـلُونَ﴾ هؤلاء يتولّى الله أمرهم ويتكفّل عقابهم ثم يخبرهم في الآخرة بما كانوا يفعلونه في الدنيا. والجدير بالذكر أن الإخبار هنا ليس مجرد إخبار وإنما هو ينطوي على تهديد لهم ووعيد بالعذاب جزاء ما كانوا يفعلون من السعي لهدم وحدة المسلمين.

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾ ﴾ .

شرح المفردات

قِيَماً: مستقيماً.

ملّة إبراهيم: دين إبراهيم.

حنيفاً: مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق.

نسكي: عبادتي.

أبغي: أطلب.

ولا تزر: ولا تحمل، ومنه اشتقت كلمة وزير لأنه يحمل أعباء الحكم.

وازرة: نفس آثمة.

خلائف: خلفاء يخلف بعضكم بعضاً.

ليبلوكم: ليختبركم ويمتحنكم.

دين الإسلام هو دين إبراهيم عليه السلام

ثم يختم الله هذه السورة بآيات جامعة تحضّ على فعل الحسنات مع بيان ما ينبغي أن تكون عليه صلة الإنسان بربه. قال الله تعالى:

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي إذا عمل المؤمن حسنة من الحسنات قاصداً بها وجه الله سبحانه فجزاؤه عليها عند ربه عشر أمثالها ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فلا يُجْزَى إلاَّ مِثْلَهَا﴾ ومن عمل عملاً سيئاً فجزاؤه مماثل لما عمل. وقد تفضل الله سبحانه على عباده في مضاعفة جزاء الحسنات ترغيباً لهم في فعلها، واقتصر الجزاء على السيئة بواحدة فقط مثلها[١]، لأن كفّ النفس عن المآثم وما فيها من إغراءات وشهوات عسير عند أكثر الناس ﴿وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص من ثواب المطيع لله ولا يزاد على عقاب العاصي فإن الله لا يظلم أحداً.

﴿قُلْ إنّني هَدَاني رَبِّي إلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إنني أرشدني ربي إلى طريق مستقيم وهو دين الإسلام الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة ﴿دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ ديناً مستقيماً لا اعوجاج فيه وهو دين إبراهيم عليه السلام المائل عن الضلالة إلى الاستقامة القائم على توحيد الله وعبادته وحده ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ولم يتخذ إبراهيم شريكاً لله بل كان موحداً له مخلصاً لم يعبد سواه. وفي هذا النص ردٌّ على المشركين العرب حيث كانوا يزعمون أنهم على ملّة إبراهيم وفي الوقت نفسه يعبدون الأصنام، وردٌّ على اليهود والنصارى

(١) يقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه: «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بيّن ذلك: فمن همّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة» أخرجه البخاري ومسلم.

الذين أدخلوا على دينهم ما لم يأذن به الله وزعموا أنهم على ملة إبراهيم، فلهؤلاء جميعاً يقول الله تعالى إن الذي اتبع دين إبراهيم هو محمد ﷺ.

وإن ما جاء به الأنبياء جميعاً وفي طليعتهم إبراهيم عليه السلام هو عقيدة وحدانية الله وأصول الآداب، وقواعد العدل، أما صُوَر العبادات والشرائع فهي تختلف تبعاً لاختلاف الأمم والعصور، وقد جاء في القرآن ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ ومَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾ قل يا محمد لهؤلاء المشركين من قومك: إن صلاتي وعبادتي هي خالصة لله لا شريك له فيها، بل إن حياتي ومماتي هي أيضاً لله. ومن يتقرب إلى ربه بهذا الإخلاص والتجرد له في سائر أحواله لا يجزع من الموت، ولا يحزن من مصائب الحياة، ولا يبالي بفقد المال والأهل والولد لأنه وهب حياته ومماته لله ﴿لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المسْلِمِينَ﴾ أي لا شريك لله تعالى في ربوبيته، وبذلك التوحيد أمرني ربي، وأنا أول المسلمين في علوّ الدرجة والرتبة.

﴿قُلْ أَغَيْرَ الله أَبْغِي ربًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شيءٍ﴾ الاستفهام هنا للإنكار ـ أي قل يا محمد لقومك: أغير الله تريدونني أن أطلب رباً فأشركه في عبادة الله، والحال أن الله سبحانه هو رب كل شيء ومالكه وهو خالق كل شيء ﴿ولا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلاَّ عَلَيْهَا﴾ أي لا تصيب أي نفس ذنباً إلا وقع جزاؤه عليها وحدها ﴿ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى﴾ تزر[1] : تحمل. والوازرة: النفس التي تعمل الذنب. والوزر: الذنب،

(١) تزر: يقال: وَزَرَ يَزِرُ إذا حمل ما يثقل ظهره من الأشياء المُثقِلة ومن الذنوب.

والمعنى: ولا تحمل نفس آثمة إثم نَفْسٍ أخرى، أي لا تؤخذ نفسٌ بذنب غيرها فكل إنسان مَجْزِيٌّ بعمله ولا يؤاخذ بذنب غيره، هذا الشطر من الآية ردٌّ على من يعتقد أن الناس جميعاً عصاة تسلسلت إليهم الخطيئة من أبيهم آدم، فخطيئة آدم في نظر الإسلام لم تنتقل إلى ذريته بل كانت محصورة به وحده، وقد تلقى آدم من ربه كلمات ليدعو بها ربه فدعا وكانت سبباً في قبول توبته كما جاء في القرآن ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] ثم ختم الله هذه الآية بقوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّكُم مَرْجِعُكُم فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُم فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ أي أن المرجع والمصير في الدار الآخرة إلى الله وحده فيخبركم ـ أيها الناس ـ بما اختلفتم به في الدنيا من العقائد ويجازيكم على أعمالكم.

﴿وَهُوَ الَّذي جَعَلَكُم خَلائِفَ الأَرْضِ﴾ خلائف: جمع خليفة، أي هو الله سبحانه أهلك من كان قبلكم من الأمم الخالية وجعلكم تخلفونهم في الأرض وتعمرونها من بعدهم ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ وميز بعضكم عن بعض في العلم والرزق والعقل والقوة والضعف ﴿لِيَبْلُوَكُم فِيمَا آتَاكُمْ﴾ ليختبركم فيما أعطاكم من النعم فيختبر الغنيّ ويسأله عن شكره له سبحانه، وعن كيفية إنفاق ماله، ويختبر الفقير في فقره وعن مدى صبره عليه ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ﴾ أي لمن عصاه وخالف أمره ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن أطاعه وسار على هديه وأخلص له في عبادته.

وكما كانت بداية السورة وسياقها تشتملان على الوعيد للذين لا يتبعون الحق، اختتمت السورة بالتذكير بعقاب الله السريع للعصاة لتكون الفكرة في نهاية السورة موصولة ببدايتها، مع التذكير بمغفرة الله ورحمته لمن تاب وأطاعه.

من المراجع

جامع البيان من تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري

الجامع لأحكام القرآن للقرطبي

التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي

تفسير الكشاف للزمخشري

تفسير القرآن العظيم لابن كثير

تفسير البيضاوي مع حاشية الشيخ زاده

تفسير أبي السعود لمحمد بن محمد العمادي

فتح القدير للشوكاني

تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي الغرناطي

التفسير الوسيط ـ تأليف لجنة من العلماء ـ مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

التفسير الوسيط للدكتور محمد سيد طنطاوي

تفسير اللباب في علوم الكتاب للحنبلي

تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا

روح المعاني للألوسي

التفسير المنير للدكتور وهبه الزحيلي

تفسير الشعراوي

المنتخب في تفسير القرآن ـ **المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة**

تفسير سورة الأنعام للشيخ محمد الغزالي مجلة (لواء الإسلام).

الفهرس

كلمة الشكر

وفي الختام أقدم شكري وامتناني

إلى أصحاب دار العلم للملايين الأفاضل لما لمست منهم من تشجيع وصدق وإخلاص

وإلى فضيلة القاضي المستشار الشيخ حسين غزال

وفضيلة الكاتب والمفكر الإسلامي الشيخ شريف سكر

اللذين تفضلا فراجعا هذا التفسير

وإلى الأساتذة:

د. هدى سنو

شفيق اللبان

د. محمد مرعشلي

على ما قدموا لي من معونة وبذلوا من جهد في تصحيح هذا التفسير.

وأقدم شكري إلى جامعة بيروت العربية لما قدمته لي مكتبة كلية الآداب فيها من مراجع وخدمات جلّى على يد المشرفين عليها.

سائلاً الله أن يوفقنا جميعاً إلى خدمة كتابه الكريم

عفيف عبد الفتاح طبارة

كتب للمؤلف

- روح الدين الإسلامي
- مع الأنبياء في القرآن
- روح الصلاة في الإسلام
- الخطايا في نظر الإسلام
- اليهود في القرآن
- الحكمة النبوية
- تعلم كيف تحج
- روح الدين الإسلامي باللغة الإنكليزية
- روح القرآن
- تفسير جزء عمَّ
- تفسير جزء تبارك
- تفسير جزء قد سمع
- تفسير جزء والذاريات
- تفسير جزء الأحقاف
- تفسير جزء الشورى
- تفسير جزء الزمر
- تفسير جزء يّس
- تفسير جزء الأحزاب
- تفسير جزء العنكبوت
- تفسير جزءي الفرقان والنمل
- تفسير سورة النور
- تفسير جزء الأنبياء
- تفسير سُوَر : الكهف ـ مريم ـ طّه
- تفسير سُوَر : الحجر ـ النحل ـ الإسراء
- تفسير سُوَر : يوسف ـ الرعد ـ إبراهيم
- تفسير سورتي يونس وهود
- تفسير سورتي الأنفال والتوبة
- تفسير سورة الأعراف
- تفسير سورة الأنعام

تنضيد وإخراج
المجموعة الطباعية
تلفون: ٨٢٤٢٠٣ ـ ٨٢٣٧٢٠/ ٠١
٨٢٥٨١٦/ ٠٣
بيروت ـ لبنان



هذا التفسير

- يعرض آراء المفسّرين من السّلف الصّالح وآراء المفسّرين في العصر الحاضر.
- يعالج التفسير بطريقة مبسّطة بعيدة عن التطويل المملّ والإيجاز المخلّ.
- ينتقي أرجح الآراء بما يوافق روح القرآن الكريم والسنّة النبويّة وفقه اللغة.
- يبيّن التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم ويظهر إعجازه.
- يعرض التفسير بأسلوب سهل وطريقة مستحدثة بحيث يسهل فهمه على الجميع.
- يفسّر المجمل من الآيات بما هو مفصّل في آيات أخرى.

ISBN 9953-9-0508-8 دراسات إسلامية

9 789953 905082 2

الموزعون الوحيدون:
دار العلم للملايين